حب بعبق الجوري

رواية

فاطمة الزهراء أزدود

رواية : حب بعبق الجوري

تأليف: فاطمة الزهراء أزدزد

الناشر: أدباء ٢٠٠٠

الطبعة الأولى ٢٠١٨

رقم الإيداع: ٢٠١٨/٣٦٨٤

تدقيق وإخراج: عبدالرحمن كمون

تصميم الغلاف: عبدالله هنداوي

المدير العام/ منة عامر

حقوق النشر والطبع والتوزيع محفوظة لدار أدباء ٢٠٠٠ للنشر والتوزيع-٢٠١٧

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو جزء منه أو اختصاره بقصد الطباعة واختزان مادته العلمية أو نقله بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك دون موافقة خطية من الناشر مقدما

دار أدباء ٢٠٠٠ للنشر والتوزيع

نشر – توزيع

0020/01020812429 – 01099654718

إهداء

لكل من أحب في زمن اللا حُب...

لكل من آمن بالحب واعتنقه، وكل ما حوله يدعوا للكفر به..

للذين كانت خطيئتهم، أنهم صدقوا وصادقوا.. أحبوا وخذلوا..

للقلوب المثقلة بالفقد..

لذكرى حب راقدة تحت ثرى الذكريات المنسية.. ارقدي بسلام فلا حبيب يرثي ذكراك..

إليكم حروف حب عذراء، لم يمسسها بشر..

لأختي فقيدة قلبي وقطعة من روحي رحمها الله، لو أنكِ معي، لو أن عيناك الجميلة تقرأ لي، وشفاهكِ تبسم لي باطمئان.

إلى أختي " ابتسام"

بدونكِ لا تكون البسمة، لا يكون السهر، بدونك لا يكون الجنون .

إلى صديقتي " سهام منصور"

من لا تلونها فصول الحياة، سحابة بيضاء مرت في سمائي المظلمة فاستقرت فيها، تلك الثابتة التي تحتويني بتقلباتي دائما، تلك التي تتشبث بطرفي حين يتركني الجميع.

إلى الصديقة " هاجر الوهابي"

قطعة بياض من جناح ملاك، أنتظر اليوم تأتيكِ فيه أمنياتك على بساط حلم.

البداية:

"الحب الذي لايدفعنا للكتابة، لحافة الجنون ،الحب الذي لا يرمي بنا إلى الهاوية، للانجراف عكس التيار...لا يعتبر حبا".

دخلت جوري إلى غرفتها بعد دوام الجامعة، اتجهت مباشرة نحو شرفتها، لتسقي ورودها وبابتسامة دافئة حييتها كأنها تراها وتسمع حسيسها، كانت قد خصصت شرفة غرفتها خصيصا لزرع الجوري المخملي الناعم الملمس كنعومة خديها، الرقيق كرقة قلبها. ولما كان الفصل ربيعا هب نسيم بارد داعب وجنتاها الورديتان.

ورثت حبها للورد الجوري عن أمها، لذا لما ولدت أصرت أمها ألا تطلق عليها اسما آخر غير "جوري" وكما ورثت عن الورد اسمه، ورثت صفاته كذلك.

جلست على مقعد بالقرب منه لتستنشق عطره النفاذ وينتشي قلبها بالراحة، للجلوس بقرب وردها سكينة رهيبة وسحر خاص يلقيه عليها اللون المخملي.

أتمت العشرين من عمرها قبل شهرين، عشر من ورقات الورد المخملي وعشرة أشواك، هكذا تعد سنوات عمرها، وهنا يكمن غموضها بين الورد الناعم والأشواك، معها يجتمع النقيضان، العاصفة والسكون، الورد والشوك، المد والجزر ويتداخل الليل مع النهار وتدرك الشمس القمر.

وفي سنواتها العشرين هذه لم يفهم أحد كيف يفصل بين الوردة عن الشوكة أو كيف تجيد الجمع بينها...!

*****

وفي مكان ليس ببعيد عنها كان أنيس جالسا في مكتبه شارد الذهن والقلب، تفكيره كله، انبهاره كله بتلك الفتاة التي رجت قلبه رجا وشلت حواسه، ومع ابتسامتها أرسلت خيوطها لتشبكه في الافتنان بها، وبخصلات شعرها الكستنائي المسترسل

خلعت عنه روحه وراحت تتراقص مع شعرها بتناغم تام، وبنظرات عيناها الواسعتين أذهبت عنه العقل، لا تفسير لما يحدث له في حضورها، وماتُحدِثُ له في غيابها.

مضت قرابة الخمسة أشهر وهو على حاله المريب، يحاول أن يخلع عنه هذا الشعور المباغت، لكنه كلما حاول يجد نفسه عارياً من كل شيء إلا منها، هي التي أضرمت نار المشاعر في داخله على سهوة منه، لا يدري كيف، لكنها فعلتها.

أذابت أقفال قلبه الحديدية المسكرة منذ زمن من القسوة، راوضته عن قلبه وروضته على الترقب.

هو الذي لقنته الحياة أن لا يميل لامرأة، أن لا يحب امرأة بعد أن لفظته المرأة التي حملته في أحشاءها تسع أشهر وجاءت به بعد مخاض طويل، لفظته وتخلت عنه بعد وفاة والده بسنتين.

كان طفلًا في السادسة من عمر شقاءه، واقفا أمام الباب يبكي ويمنع أمه من الخروج، يتوسل إليها أن لا تتركه كما تركه والده ورحل للسماء، لكن دموعه لم تهز أمومتها العقيمة، لازال يبكي أمامها ويعدها أنه لن يغضبها بعد اليوم، ولن يتشاجر في المدرسة، ظن ببراءته أنها تعاقبه على شغبه، لكنه كان أصغر من أن يستوعب أنها ستتخلى عنه من أجل الزواج برجل آخر، لكنها لا زالت مصممة على رحيلها، مصممة على زرع أشواك الألم في قلبه الصغير، أبعدته عن الباب بيديها القاسية وذهبت، واكتمل يتمه، وحفر لقلبه قبر بجانب قبر والده، فصار هو والشقاء وجهان لعمر واحد.

ما الذي جعله يتذكر هذا الآن؟

أخذ علبة سجائره بعصبية بعد أن انفجرت براكين الماضي المحرقة في داخله، ترك الملفات لزميله الذي يشاركه مكتب المحاسبة وخرج دون وجهة.

بعد أن ظن أن قلبه غاب عن خارطة الحياة والأرض، أحيته تلك الفتاة ببراءة وجهها، بعثته بعد موته وجعلته ملكوتًا لها دون أن يدري، ولم يكن يدري أن كل قلب ذائق الحب.

*****

ارسلت الشمس أشعتها الذهبية، واستيقظت جوري من النوم بعد أن لامست خيوط الشمس وجنتاها ولونتها بالوردي، استيقظت وفي داخلها إحساس يدفعها للإسراع في الخروج، إحساس لا يرده شك ولا يوقفه تردد، كأن شيئا ما ينتظرها في الخارج، حتما كانت تدرك ماذا ينتظرها، رؤية ذلك الشاب الغريب القريب من القلب الذي أدمنت رؤيته كل صباح، كم يلزمها من الصبر حتى تمتنع عن عادتها؟

تلتهم نظراته كحبوب مضادة للشوق، مهدئة للهفة، يتبادلان نظرات لبرهة من الزمن وتذوب العيون في حديث صامت لذيذ، يسقي كل منهما شجرة شوقه ليمضي بعدها كل إلى سبيله تاركان القلوب ورائهما في عناق حميم، لكنهما لا يجرؤان على الاقتراب، بينها سد منيع من الكبرياء، تتسارع نبضات قلبها بسرعة جنونية كلما رأته، تخشى أن يطوله صوت نبضها المتسارع فينكشف الستار عن مشاعرها.

*****

جوري:

استرجعتُ وعيي المسلوب بسحر نظراته الحادة، لم أرَ أحد من قبل يحمل نظرات كنظراته، تلك التي تجمع بين الغموض والقسوة والحدة، كغطاء يخفي به حنانه الذي فشل في إخفاؤه عني، جربت مع عينيه متعة الاستكشاف والغوص في أعماقه، وخرقت غطاء القسوة المزعومة!

أخذت مقعدي في المدرج، جلت بعيناي باحثة عن صديقتي لكني لم أجدها، لقد غابت اليوم أيضا، أصبحت تغيب كثيراً، ربما المشكل ذاته.

عزمت على الإتصال بها بعد نهاية المحاضرة.

حرصت ان أكون أكثر تركيزًا، أقل شرودًا، لكني عبثًا أقاوم التفكير فيه، أثار جميع اهتمامي وشغف كل ذاكرتي، أصبت به كفيروس استوطن جميع خلايا عقلي.

هذا فصل الربيع الذي تنفتح فيه الورود للحياة وفيه ايضًا انفتح قلبي للحب، كل ما اختزنته من حب منذ سنين كان من نصيبه هو، غريب أمر هذا الحب!

كيف أنه بلقاءات عابرة يسكن القلب دون أن يستأذن، يوسوس له حتى يغويه للوقوع في الحب، فيبدي لنا ما وري عنا من أحاسيس ما كُنا سندركها لولا الحب، يبدي لنا كيف يكون للزمان معنى حين نمر بمحاذاة من نحب، كيف تُضرَم اللهفة داخلنا ويفخخنا الإشتياق، كيف يكون لليل معنى حين تستغرق في سرد ذكرياتك مع من تحب للقمر.

وكيف يُخرِس الصمت ألف كلام، وكيف لنظرة أن ترفعك فوق جناح الحب، ستدرك حين تحب أن الحياة تبدأ حين يشغل الحب مقعد قلبك الشاغر، وستدرك أيضًا أنك قبله ما كنت حيًا، كنت نسيًا منسيا.

لا أدري كيف خرق جدار قلبي من اول سهام حب رماه إلى قلبي، كان ذلك منذ أن رأيته ذات صباح ممطر، حين كنت أسلك طريقي إلى الجامعة، فسلك طريقه إلى قلبي، ما إن رفعت عيناي في نظرة خاطفة دون قصد حتى التقت عيناي بعيناه وتوقف الزمن للحظة خطفني فيها الحب عن قصد ! سرت رعشة لذيذة في اوصالي.

ومن يومها وأنا لا أفوت جرعتي الصباحية من الحب، من أجله صرت أحسب الدقائق وأعد الثواني كي أسرق لقلبي نبضات تكفي ليوم كامل من الإشتياق.

لكن الآن ماعادت اللقاءات القصيرة تكفي لإشباع جوع الحب، كبر الحب وازدادت شهيته، لكنه يتعمد تجويعه كأنه يروضني على الصبر، وأنا التي لا تحمل من الصبر مثقال ذرة!

لو أنه يقترب، سئم الترقب دوره في الإكتفاء بالجلوس على مقاعد الإنتظار ينتظر حدوث شئ، يبدو أنه لن يحدث، لن يقترب، لو أنه يقترب، لحال بيني وبين الشك الذي يتلاعب بخبث بقلبي ويسحقه، لانقشعت ضبابة الضجر عن المشاعر.

غموضه يثير رغبتي في كشف أوراقه وقراءتها، علني أفهم ما الذي يجعلني مشدودة به إلى حد الجنون، لو أمسك بكفه وأقرؤها كما تفعل العرافات، لتهت في خطوط يديه وقرأتها بعين الحب ! ترى كيف سيكون ملمسها؟

لكن ماذا لو كانت شرارة الحب التي أشعلت قلبي وسكنت صدري لم تقرب قلبه أبدا؟ كيف سأصمت هذا الإشتياق الذي يسألني عنه صباح مساء؟ كيف أثنيه عن افتعال الحرائق بقلبي؟ كيف سأقلع عن عادتي الصباحية وبها يشرق صباح فرحي ؟ خوفي أن تكون حواسي تكذب لإرضاء رغبة هذا الحب المستعر في قلبي بأنه هو أيضا أصابه من الولع ما أصابني، وأن قلبه قد مال صوب قلبي.

ولكي أطرد عني الأفكار المضاربة في عقلي هاتفت ريم صديقتي، جاءني صوتها تتخلله حشرجة تشي بأنها كانت باكية، للسبب ذاته من سنين انطوت شخصية والدها المتسلطة

على طاولة العشاء، كانت قد اجتمعت العائلة كل من ريم وأخوها الكبير، الأم والأب، الكل انحنى على صحنه يأكل في صمت لا يسمع إلا صوت المعالق، فالحديث أثناء الأكل ممنوع حسب جبروت الأب، وبعد أن أنهت ريم صحنها همت بالنهوض، إلا أن الأب أجلسها بنبرته الجشة:

- اجلسي يا ريم، لا دراسة بعد اليوم، طلب يدك صديقي يوسف لابنه وأنا وافقت والخطبة الأسبوع القادم.

لم ينتظر ردها ثم رفع اصبعه في حركة آمرة للأم:

- غدًا اذهبي معها للسوق واشتريا كل ما ستحتاجانه ليوم الخطبة.

نظرت ريم إلى أمها تستغيث بها، لكنها لا حيلة لها أمامه، ثم نظرت إلى والدها في ذهول:

- لكن أنا لا أريد الزواج الآن، لم أنه دراستي بعد.

ثبت نظراته على عينيها بجبروت وقال:

- ومن طلب رأيك؟ أنا أخبرت بقراري ولم أطلب رأيك، ستتزوجين والأسبوع القادم خطبتك.

فقدت ريم أعصابها وقالت بحدة :

- لكني لن أتزوج، حين سيأتي ذلك العريس سأخبره بأنني لا أريده ولا أريد الزواج به.

حين قالتها جمع قسوته وجبروته في كف واحد ثم هوى به على وجهها وترك بصمة قسوته على خدها الرقيق، نهض وأمسك بشعرها يلويه بين يديه وبدأ يصرخ فيها :

- ماذا قلتِ؟ أعيدي ماذا قلتي؟

كانت تتلوى ألما وتبكي في صمت وبصوت شبه مسموع قالت:

- لن أتزوج.

صفعها مجددا، صفعة تلو الأخرى، تستغيث بأمها وأخيها، لكن كلاهما جامد والقلب ينزف.

عاد يصرخ فيها:

- أهذا ما تعلمتيه من دراستك؟ تعصين والدك، لا أحد يعصيني في هذا البيت، وإن تجرأ أحد على عصياني..

أشار بسبابته للباب:

- فليخرج من بيتي ولا يعود، لا حاجة لي بأبناء يعصونني!

حاولت مواساتها بكلمات أعلم أنها لن تنقص من بحر الوجع قطرة، لكني أردت أن أشعرها بأني لروحها سند، لكن الأخرى بدت مستسلمة للقدر الذي رسم لها ببقايا كبرياءها، انتحبت قائلة :

- القرار حسم ولا مجال للرفض .

هكذا هو، منذ عهده يفرض قراراته وآراءه على كل من بالبيت، وإن تجرأ أحد على الرفض فلن يسلم من بركان غضبه، كأنهم دمى متحركة، يتحكم في مصيرهم يحركهم في الإتجاه الذي تمليه عليه نفسه، دون أن يدري فداحة ما تجنيه سلطويته في حق أبناءه، حين تغتال أحلامهم على مرآى من عينيه دون أن يتنازل قليلا عن تحجره، حين يشنق حرياتهم بحبل القمع والقسوة، يرسم الشقاء على قلوبهم بريشة أنانيته الحادة، كأنهم أشياء صنعها بيده لنفسه.

هكذا تغيب شخصية الأبناء في العدم، ويتولد نفور من الأب أو التمرد عليه وكلاهما يهدم جدار العلاقات الأسرية.

هذه النماذج المستفزة أدعوا لها أن تنقرض ويواريها الثرى، كي تنال كل نفس ما تصبوا إليه، وتأخذ القلوب قسطها من الأحلام، الأحلام أن نتعلق بفتيل أمل لغد أفضل، أن ننتظر في عتمة الظلام بزوغ شمس جديدة تهدينا أحلامنا من بين أشعتها.

حينما تصبح ثمرة البرتقال البعيدة التي نشتهيها بين أيدينا فإننا نتلذذ بطعمها حتى إن كان مرًا.

حلاوة تحقيق الأحلام تغطي على كل مر نتذوقه، وكنت أنت الحلم والمراد.

لم أكن أتوقع أن عيناك الرماديتان ستكون سماء أحلامي، وأن ألامس فيها عمرا من الحب يناديني.

الحلم الذي يعانق ذاكرتي كل ليلة، يلونها بألوان الحب المزهرة، ويقطع للذاكرة وعودا بذكريات حب مخلدة، الحلم الذي أدفع قلبي ثمنا له مقابل اقترابه، أنت الحلم الذي شغف حواسي كلها وأشلها عن الأحلام الأخرى، كأن الأحلام الأخرى ماعادت تعنيني،أراك في سماء أحلامي قمرا تنافسه النجوم على مكانته، منذ أن حضرت وقلبي قد ألقى بكل شئ جانبا ليتفرغ لحبك وليكتبك على قائمة الأحلام وأولها وآخرها.

سرقتني من واقعي، وسرقتني من نفسي.

ذهبت للسوبر ماركت لأقتني بعض الأغراض لي ولأمي، على بعد شارعين من منزلنا، وكان قريبا من الشارع الذي أعلنت فيه عن حضورك القوي وحاصر قلبي، من أين جئت يا ترى، خبأت يدي في جيب معطفي الصوفي وبرد مارس يقلب أضلعي، أخذت الأغراض التي جئت من أجلها كنت في طريقي لصندوق المحاسبة قبل أن أتذكر أنني نسيت شراء الشوكولاتة التي تعجبني، استدرت لأحضرها، فحضرت أنت، كنت تقتني بعض الأغراض، لم تلحظني في البداية كنت مشغولا بقراءة علبة منتوج، تصبب جبيني عرقا، وجدت نفسي دون إدراك واقفة أتأمل وجهك، في كل مرة أراك أسرق

ثواني للشرود في وجهك حين لا تكون منتبها لي، كاليوم! وأكتشف كل يوم "سرًا" تفصيلة من تفاصيل وجهك الوسيم، وأخفيها تحت أجفاني لأراك كل ما أغمضتي عيناي، ولأغمض عيناي كلما أردت أن أراك، وكلما اشتاقت رموشي لعناق صورتك، أجدني أبتسم لك بكل حب، ثم كشفتني حين استدرت فجأة فعادت دقات قلبي المتضاربة تذكرني بالمسافة الفاصلة بيننا، تمنيت لو أهرب بعيدا، بعيدا بعد أن افتضح أمري، تجمدت في مكاني وابتسامتي ما زالت مرسومة على وجهي قبل أن تشهر في وجهي ابتسامة ساخرة !! مررت بجانبي حتى ضرب كتفك بكتفي عمدا ! همهمت في نفسي: يا لوقاحته!

زعزعت ثقتي، استدرت أنا أيضا وذهبت أجر أنوثتي الباكية لطابور محاسبة بعيد عن الطابور الذي تقف به، كأنني أنتقم لكبريائي المجروح، مغرور من يظن نفسه منذ فترة قصيرة فقط كان يبتسم لي كلما رأيته، والآن أهانني بطريقة مستفزة، غريب أمر هذا الغريب الذي لا أعرف حتى اسمه، لكنه أطاح بقلبي.

حاولت أن أوصد أبواب قلبي من ذلك اليوم، لكنها لم تكن تنصاع إلا لصوت نبضاتها، ونبضاتها تئن وتحن إليك بجنون، وبقي حبي لك مشنوقا بالصمت الباكي، هائما في الخوف، الخوف من أن أكون قد شربت كأس الحب وحدي دون أن تشاركه معي، موجع الحب من طرف واحد، يعلق قلبك بين الحياة والموت، فقط كلمة واحدة ممن تحب قادرة على أن تحيلك للوجود أو للعدم، تغوص في بحر من المشاعر المتضاربة، تحبه لكن تخشى رفضه، تشتاقه ولا يحق لك الإقتراب " ممنوع إقتراب الغرباء" .

غريب لكنك استوطنت قلبي وتربعت مملكته، ولا يزيدك الغوص إلا غرقا في عذابات لا تنتهي إلا حين ينتشلك من تحب بيقين حبه لك بين أضلعه، ثم يعود العمر عمرا، الليل ليلا، والنهار نهارا، حين يصبح القرب مباحا، يصبح العذاب مستحيلا.

مرت الأيام بعد تلك الإهانة، تحاشيت أن ألتقي بك كي لا يشن غضبي هجماته في وجهك، حتى ظهرت أمامي فجأة مرة، رمقتك بنظرات حادة، ثابتة، لكن قلبي كان

مكسورًا، أشحت بنظري عنك، كانت معي زميلة من الدراسة انشغلت عنك بها، أسألها عن عرض علينا إنجازه، لكن في داخلي كنت أصارع أمواج شوق، وأعاصير غضب تميل بقلبي وتقلبه ذات اليمين وذات الشمال، قالت لي زميلتي:

- ذلك الشاب الذي مر من هنا .

وأشارت إليك- كنت قد مضيت- :

- لم يزح نظراته عنك.

تصنعت اللامبالاة وشعلة أمل قد اشتعلت في داخلي :

- لا يهمني!!

ثم جرني قلبي رغما عني لمحطة الإنتظار، أبني آمالا لعمر يجمعني بك، أتحدث إليك ولو لمرة لتحيي ما بقي من سنيني، أضع كفي في باطن كفي فتلغي الزمن الماضي.

لو تدري كيف أراك، أراك في بساتين العمر جوريًا أحمر، يعانق أريجه نسيم الفجر، يغوي بجماله سحابة مطر.

أراك في فضاء كوني نجمًا يطرد شبح عتمتي، نفحة سكون تلملم انكساراتي.

بحرًا يغرق في أعماقه عذاباتي، أراك مطرًا يخمد لهيب نيراني، أنت في فضاء كوني سحبًا تعانق وحدة سماواتي. أراك في العمر عمرًا، في القلب ساكنًا، وفي الخيال حلمًا.

ترى أنت كيف تراني؟ لو أعلم لمرة واحدة ماذا أعني لك وأختفي بعدها عن الوجود.

ذات مساء مررت من نفس الطريق الذي جرفني إليه القدر لألقاك ولتكون قدري، على مقربة من أرض اللقاء هناك مقعد خشبي تحت ظل شجرة قد شهد على كل لقاءاتنا العابرة، ودون تاريخ اللقاء الأول، النظرة الأولى والدهشة الأولى، وسمع تلك

النبضات الجنونية، ربما لو سألته عن بقايا قلبي المتناثرة لأجابني بأن رياح الحب قد عصفت بها نحوك!

شدني وله للجلوس هناك لبعض من الشوق، ألقيت نظرة على ذلك الطريق أبحث في جدران البنايات عن بصمة حب مر من هناك.

القدر يضعنا في طرق لا نتوقعها ولم نسلكها من قبل حتى يختبر قدرتنا على إيجاد مخرج، أما أنا فلا أريد بلوغ النهاية، أريد ان أتوه بين الدروب، أن أزرع في كل ممر وردة تشي بأنني قد مررت من هناك،أريد أن أجرب معك متعة الضياع.

أخذت هاتفي لأتصفح حسابي على الفيسبوك، ولأن الجو كان حارا كحرارة أشواقي، أو أن الأشواق هي الأشد حرًا، خلعت الشال عن عنقي وبقيت جالسة هناك حتى أدركت أني تأخرت عن العودة إلى المنزل، أخذت أشواقي ورحلت إلى البيت، بعد ساعات تذكرت شالي لقد نسيته على الكرسي حيث كنت جالسة، كما نسيت قلبي قبله.

كان شالا حريريًا جمعت ألوانه بين الأرجواني والأزرق الفاتح، الشال الذي أحب أن أزين رقبتي به، كان لجدتي وأخذته بعد موتها من بين ثيابها التي جمعوها ليوزعوها على الفقراء، أذكر إني حين سمعت بأنهم سيأخذون ملابسها كلها، دخلت خلسة إلى الغرفة وأخذته، هي أيضا كانت تحبه جدًا، عادة ما كانت تلبسه فوق رأسها في المناسبات، أخذته بين يدي وأغرقته قبلًا ودمعًا، وخبأته في رف من رفوف دولابي للذكرى، ثم بعد أن خف وطأ الفقد على قلبي واشتد شوقي لها استخرجته من بين الذكريات وعلقته في عنقي، فقدت آخر قطعة من جدتي، وبدأ الندم والحزن يتناوبان على تعذيبي.

ثم في صباح يوم غد، استيقظت كعادتي حسب توقيت القلب ونبضاته وسلكت طريق القدر الذي أدمنت المرور منه، ما إن اقتربت من الوصول إلى المقعد المقابل للطريق حيث جلست الأمس حتى لمحته جالسا في المكان نفسه !

نعم إنه هو، اتسعت عيناي الواسعتين من الدهشة، لم أستطع التقدم خطوة واحدة للأمام أو التواري للخلف، كانت تفصلنا خطوة من الترقب، خطوتان من التوتر، خطوة من التردد وخطوة من الدهشة، وبين الخطوات اشتعل شئ ما بداخلي، جمعت ماتبقى مني وهممت بإكمال طريقي حتى جاءني صوته من الخلف عذب كالفرات:

- هذا الشال لكِ؟

من فرط انبهاري لم ألمح أنه كان يحمل شالي الذي نسيته هناك بين يديه، ابتلعت الدهشة أحبالي الصوتية فلم تخرج مني إلا إيماءة تشير ب نعم.

كان لا يزال جالسًا على المقعد متحديًا بنظراته اندهاشي، اقتربت منه لآخذه جاهدة أن لا يلحظ ارتجاف أوصالي وأنا على مقربة منه، لكنه ظل ممسكا به كأنه لا يريد إعادته لي، فليكن، فقد تركت له ما هو أثمن من الشال.

قال أخيرا بكبرياء بعد أن أحرق ما تبقى لي من صبر:

- تفضلي بالجلوس.

ترددت أولًا ثم استجبت أخيرًا لرغبة تدفعني للجلوس بجواره، كانت قد علت وجنتاي حمرة فاضحة، رحت أستعيد أنفاسي،

خاطبني قائلا:

- تجيدين اختيار الألوان.

اكتفيت بابتسامة داريت بها خجلي.

قال مجددًا :

- أتعرفين أسطورة اللون الأرجواني؟

التفت إليه بفضول مجيبة :

- لا!

رفع عيناه وهم بالكلام لكنه سكت ما إن التقت عيناه الرماديتين بعيناي العسليتان ولم ينطق ببنت شفة، تجمد الكون حولينا وبقيت القلوب وحدها في دوران تنبض وتتسارع نبضاتها.

ساد صمت طويل، كان سحر العيون قد أطبق الكلام وأبكمه، راح يتأمل عيناي وتهت أنا في غموض الرمادي في عيناه. اهتدتني ابتسامته إلى رشدي بعد ما يقارب النصف ساعة من التأمل، توقفت فيها العقارب إجلالا لقيمة اللحظة.

زال أثر السحر عنا، فاستدركت في خجل :

- علي الذهاب سأتأخر.

مد إلي الشال دون أن يتكلم، أخذته من بين يديه وانصرفت غير مصدقة لما حدث كأني كنت في سماء الحلم، حلم لذيذ لا أود مفارقته.

اختلت موازين قلبي في حضرتك، وانقلبت موازين الكون، صارت الجاذبية أنت، الشمس أنت، والقمر أنت، ذاب الجليد بين يديك ونبتت من بين أناملك ورودا، وألحان الكون أجمع صوتك، حضورك أنضبت الحروف في جوفي، أبحث عن الحروف أحاول التقاطها، فتزيدني تبعثرا أمامك، ما عدا أربعة حروف تتراقص أمامي " أ.. ح.. ب.. ك"

أخيرًا أنصف القدر قلبي ومنحه متعة لقاء مباغت عن قرب، من كان سيصدق انني جلست بالقرب من قلبه؟ كان جالسا هناك بكل ثبات وكبرياء، عاقدًا حاجبيه، تمنيت لو أنني لمست جبهته وفككت بأنامل الحب عقدة حاجبيه، لو أنني مررت أصابع الفضول بين خطوط جبهته لأكتشف ما الذي يثير اهتمامي في هذا الرجل، لو أني أعلم كيف يمكن لصوته ان يكون كـ نوتات مسيقية يتراقص على نغماتها القلب، كان

ببذلة سوداء، غالبًا ما يرتدي الأسود، يبدو أنه لونه المفضل الذي يزيد بشرته السمراء جاذبية ساحرة إلى جانب شعره الأسود وذقنه المهمل وملامحه التي تضج رجولة.

هممت به واكتمل الضياع والشتات، وانشطرت الروح إلى أشلاء اتبعت خطا قلبه.

ارتميت على سريري بفرح غمر القلب وفاضت به الروح، فما عاد الفضاء يسعه، ولأول مرة أشعر أن غرفتي أصغر مما يجب! ولأن السعادة يجب أن تتشارك لم يكن ليشاركني غمرة السعادة ونشوة الحب هاته إلا سيمفونية "بيتهوفن" التاسعة، سمفونية الفرح، تراقصت النوتات مع الحب رقصة السعادة دون أن تترك بين حرفي الحاء والباء أية فجوة ليتسلل إليها الحزن، واندمجت الروح وتوحدت الحواس مع حركات المايسترو، تميل معها بدقة متناهية إلى الأسفل ثم إلى اليسار ثم إلى اليمين وإلى الأعلى بتناسق تام! كأنها واقفة في حضرته بين فرقة العازفين :

O Freunde, nicht diese Töne!

Sondern lasst uns angenehmere

.anstimmen und freudenvollere

Freude! Freude!

حين يسمع الحزن هذه السمفونية لمقت وجوده حقا، لو سمعها لأنفنى حتمًا، لتمنى لو أنه كان رمادا تناثره الرياح في يوم عاصف.

أخذت شالي أتحسس موضع يديه منه، ضممته إلى صدري بكل ما أوتيت من حنين ولهفة كأني أضمه هو، استنشقت منه رائحته كما استروح يعقوب ريح يوسف من قميصه، عبق أنفاسي، عطر رجولي قوي تغلغل في شرياني واستقر في أنفي، إذن فقد تعمد أن يرش عطره على شالي لتعلق رائحته في أنفي، لكنه لا يدري أنه عالق في ذاكرتي وفي أيامي، عالق بين انفاسي وقلبي، ساكن في داخلي، هو قدري.

لو أنه سكب رائحته هو بدلا من عطره لأطفات لوعة قلبي ولطابت بها نفسي أكثر.

ولكان لعناقها عمقًا أكبر وطعما آخر.

الآن فقط خطر في بالي كيف وجدته؟ انتشيت بفرحة اللقاء وتناسيت أن أعرف من أخبرك أنه لي؟ أكان يحمل الحنين لك هو أيضا أم أنك كنت هناك أيضا ولم أنتبه لك، أو ربما الكرسي لا يحفظ الأسرار، لاحت لي فكرة ببعض من الشك أنك أيضًا زج بك القدر في عتمة الحب هاته.

احتضنت الشال وغرقت في النوم، بعد أن أثقلتني الأفكار وتلاعبت بي لعبة الأحجية.

*****

مرت قرابة الأسبوعين على حديثي مع صديقتي ريم، وقدمت لزيارتي اليوم برداء مأساوي!

قد حدث بين أخيها الأكبر وأبيها نقاش عنيف، بما أن أباها لا وجود لكلمة حوار في قاموسه، بعد أن أراد أخ ريم أن يترك عمله مع والده كمقاول، للبحث عن عمل يناسب ومجاله والولوج لسلك الماستر، لكن رغبته قوبلت بالرفض التام.

وبعد أن أصر على رأيه حدثت تشاحنات حادة، أصيب الأب على أثرها بانهيار عصبي استوجب نقله للمستشفى، لكن أصابه شلل نصفي وفقد قدرته على الكلام والمشي، ما إن أفرغت من سرد الحديث حتى استغرقت في بكاء عنيف، رغم قسوته وتسلطه إلا ان ريم صاحبة قلب طيب لا يعرف الحقد طريقا إليه، مكثت بجانب والدها في المشفى ليلًا ونهارًا تراعيه وتهتم به إلى أن أخرج، وعادوا به إلى المنزل، بينما أخوها لم يسأل عن حاله حتى!

ترك المنزل وخرج باحثًا عن مستقبل يحلم به من زمن، وبهذا الحادث المريع تخلصت ريم من موضوع الزواج ذلك وعادت لتشغل مقعدها بجانبي في الجامعة.

تجمعني بريم صداقة روحية منذ أكثر من عشر سنوات، رغم التباين الواضح بين شخصيتينا، وبُعد أفكارنا بُعد المشرق عن المغرب! ريم مهووسة بكل ما يخص الموضة، لا تفوت مشاهدة عرض من عروض الأزياء، حتى أحاديثها غالبا ما تكون

عن آخر صيحات الموضة من إكسسوارات ومكياج وملابس، حتى يصيبني الضجر من حديثها هذا وألعن في نفسي من اخترع كلمة "الموضة" هاته.

بينما أنا لا تشغل هذه الأمور أي حيز من تفكيري، أرتدي ما أجده مريحا ويناسب شكلي سواء أكان آخر صيحات الموضة أو أولها، هي اجتماعية تصاحب كل شخص تقابله بينما أنا انطوائية صديقاتي معدودات على رؤوس الأصابع، لا أميل للكثرة ولا أجد نفسي بين الجموع من الناس، قد أجلس قبالة وحدتي لساعات من العزلة دون أن يطولني الضجر، عصبية أثور لموقف بسيط بينما هي قطعة من الجليد البارد، متناقضات لحد الإختلاف لكننا لا نختلف أبدا.

هي شغفها بالموضة، وأنا شغفي كله منحصر في رفوف مكتبة، بين ديوان شعر أو رواية أو كتاب، تسحرني قصيدة، تلهمني رواية، أنسى نفسي بين السطور المنسية لأتوه في جمال الكلمات وأنبهر بإبداع الحروف، أنتقل بإحساسي من زمن لآخر، وتشدني الحواس في كل عبارة تشبهني.

أحيانًا قد أنسى موعدً ا أو أفوت وجبة أو أسهر لساعات دون أن أشعر وأنا أقرأ كتابًا دون أن يتسرب إلي الملل، وأحيانًا كثيرًا أفقد شعوري بالعالم الخارجي وأنغمس في الرواية، وهذه مشكلتي مع أمي، تظن أني أعاني من "الببلومانيا"، جنون الكتب ونوع من أنواع الوسواس القهري والهوس الذي يدفع المصاب به إلى اقتناء الكتب بشكل كبير، والإحتفاظ بها. تخزينها دون قراءتها حتى ! أقرأ الريبة والقلق في وجه أمي في كل مرة تراني أحضرت كتابًا جديدًا أو أقرأ رواية، لكني لا أقتني إلا ثلاث أو أربع كتب كل شهر فما الضير في ذلك؟

كنت أكتفي بالقراءة فقط، لم أجرب الكتابة من قبل، حتى أحببتكَ واهتدى قلبي إليك، وكأن الكتابة وحي من القلب يمليه علينا ونكتبه بقلم من الحب أو قلم من الخيبة.

الكتابة إليك تجعلك أقرب إلي من حبري، وتجعلني أقرب إليك من قلبك.

صارت الكلمات تتدفق إلى الورق كالسَيل دون أن أبذل جهدًا يُذكر أو أجهد عقلي، كلما سهوت في عيناكَ كأني أسرق منها حروفًا، يحتضن الورق كلماتي بلهفة المشتاق وكأنه كان ينتظرها ليحملها بين السطور، يكفيني أن أذكرك لأستلهم قصيدة،تعتري اللغة شهوة أدبية كلما علمت أني أكتب لك.

ولو لامست عباراتي لوجدتها تنبض إحساسًا، لو قرأتها لشعرتَ بأنها كتبت لك، لعلمت أنك أنت المقصود في كل حرف أملاه علي وحي قلبي.

الشعور الذي يسكننا أول مرة لا ينسى ولايرحل عنا، يحتل أعماقنا بقوة، ويأسر كياننا، يجعل كل شعور بعده مجرد زائر عابر لا يترك في القلب أثراً كما تركه الشعور الاول.

لايترك لنا فرصة للبحث عن غيره، يكون قد غطى كل فراغ داخلنا وأغدق علينا من نعيم إحساسه، يحظى بالمكانة الأسمى في قلوبنا، ويظل متشبثا بها إلى آخر رمق، رغم محاولاتنا العبثية في محوه والتخلص منه، يغرقنا في كرم نشوته حتى تفيض به قلوبنا وتلين به الجلود ليتسرب إلى العروق ويبث فيها الحياة ويعمرها، وقد كان هذا الحظ من نصيب قلبك، وهذه المكانة لك و لعيناك، وفي فيض هذه المشاعر غرقت أنا في حبك، وبعد حين من الحب أدركت فداحة ما يحصل لي، حين بلغت من الحب عتيًا.

وبعد يومان من اللقاء الأول ببعض من الترقب، وجدتك مرة أخرى واقفًا هناك في نفس المكان، لم تنصرف إلى عملك ما إن رأيتني حتى ألقيت علي تحية الصباح وتعويذة حب، إبتسمت لك بدوري حتى أبدو أكثر صلابة مما أنا عليه، وأقل اندهاشًا مما كنت عليه في المرة السابقة ورددت التحية دون ان أرد التعويذة! جاءني الصوت العذب ذاته:

- لا تضيعي أشيائك مرة أخرى فإن عثرتِ عليها في المرة الأولى ربما لن تعثري عليها في المرة الثانية.

كانت عبارة أكثر عمقًا مما تبدو عليه، واسترسلت بابتسامتك:

- أنا أنيس

"أنيس"، رحت أتنغم بحروف اسمك الرقيقة ونبرة صوتك ازدادتها جمالًا كقطعة موسيقية.

استدركت أخيرًا:

- وأنا جوري
- تشبهينه كثيرًا!

ابتسمت بخجل وقد تدفقت الدماء إلى وجنتاي..

- وتحميلنه معك أيضًا

بدهشة سألتك:

- أين؟

أجبت بمكر:

- في خدودك المحمرة كحمرة الجوري

أطبق الخجل على الكلام وخيم صمت لثواني، بعدها أشرت بيدك لبناية قريبة من هناك وقلت:

- أعمل هنا.
- هذا جيد، سأنصرف كي لاتفوتني المحاضرة.

ودعته ومضيت، مضيت وأنا أردد اسمه كأني لم أسمعه من قبل، أشرحه حرفًا حرفًا في قاموس عشقي.. " أ ن ي س "

بعد إنتهاء المحاضرة كانت لاتزال حروف اسمه تلوح في الذاكرة، إلى أن انتشلتني ريم بحديثها عن أحدث صرعات الشعر !

*****

ثم كثرت اللقاءات، في مقهى على مقربة من أرض القدر حيث ولد الحب وشهد لحظات حياته الأولى، وصارت اللقاءات لقاء من نظرات النجوى، لقاءان من الصمت الشهي، ولقاء من المشاعر الظمأى،وكل لقاء كان يزيدني تعطشًا لقربك، كلما خبت الشوق في حضورك ترحل لتزيده اشتعالًا.

كنا نكتفي بالقليل من الكلام، لقاءات ملتهبة كهاته لا يرويها إلا حديث القلوب ولغة العيون، لقاءات كانت أقرب إلى الغرابة، وعلى قدر غرابتها أحببتها، وحين لمست يدي للمرة الأولى وشبكت أصابعك بأصابعي كأني قد امتلكت القمر والنجوم بين يدي، فشددت عليها بقوة خوفًا من أن تفلت مني، أدركت حينها كيف يكون أمان الكون كله يحوم حول قلبك ويحميك، أيقنت أنني لا أرغب في شئ أكثر من قربك، ولا أمقت شيئًا أكثر من بعدك، كانت لمسة مفعمة بالمشاعر، مثقلة بالحب كأنك احتضنتني كلي، لا يدي فقط.

قلت لك بنبرة هامسة أقرب منها للتوسل:

- لا تُفلت يدي.

وبابتسامتك التي تذهب الإرتياب عن قلبي أجبت:

- لن أفكر فيها حتى.

بقينا على ذلك الحال حتى توارت الشمس بالحجاب، وتوارى معها الشك والحزن والخوف ولم يبق في السماء مكان، غير للأمان والحب.

*****

اصطحبتي معك مرة لمشاهدة الغروب قرب البحر، عشقنا المشترك، رؤية الشمس وهي تغيب معانقة أمواج البحر، تنثر ما تبقى من أشعتها على ماء البحر فتزيده لمعانًا وبريقًا، لا تغيب الشمس حتى تمنح للسماء والأرض والبحر كل ما تملك، يا لسخاءها!

اعترتني لحظة سكينة هادئة خلبني فيها سحر المنظر أمامي، وشدني سحر وجودك بجانبي.

جلسنا في السيارة وقلت بأنك ستسمعني أكثر أغنية تُحبها..

"My heart will go on"

فأحببتها من أجلك أكثر مما كنت أحبها، أغلقت عيناك كما أسدلت الشمس جفونها وبدأت تغني معها بنبرتك المفعمة إحساسا:

Every night in my dreams،

I see you, I feel you

That is how I know you go on

Far across the distance and spaces between us you have come to show you go on

Near far where ever you are

I believe that the heart does go on

ابتسمت لي ابتسامة تخلع عن عقلي وعيه، وقبلت يدي برقة ثم قبلت اليد الأخرى هي أيضًا كي لاتغار من أختها.

قُلتَ لي :

- I see you in my dreams

أجبتك بعد صمت كنت أتلذذ فيه بحلاوة عبارتك:

- You are all my dreams

ومن لحظة غروب الشمس تلك، صارت هذه الأغنية لنا، نستمع لها كل الوقت، كأنها كتبت لنا، كأنك أنت من لحنتها بخامة إحساسك، كأنها خلقت لتعبر عن حالة عشقنا، وكأن كلماتها كتبت إكراما لحبنا الذي لا تغرب شمسه.

لكنك غامض، كلما فككتُ شيفرة من شفرات شخصيتك الغير مفهومة ظهرت لي أخرى، وكأنك لغز غامض أسعى لحله، وأفشل دائما في الوصول إلى كنه شخصيتك، أحيط بهالة غموضك لأخترقها، لكن عبثًا أحاول، لا تفصح عن أفراحك ولا عن خيباتك، تستر آلامك بحجاب من اللامبالاة لكنك في الحقيقة تبالي كثيرا، حتى عندما تغضب مني لم تكن تخبرني أو تشعرني بأنك غاضب، مرة تكون مسروراً وبضع مرات تكون مكتئباً، أحيانًا تثرثر كثيراً وغالبا تفضل الصمت، حتى عندما أسألك عن أمر لا تحب التحدث فيه كنت تكتفي بابتسامة وتغير مجرى الموضوع، حتى عندما أطلب منك أن تحكيلي عن طفولتك تمتنع بتحفظ لاأدري لماذا؟ لطالما رغبت أن أعرف هذا الرجل الذي أحبه كيف عاش طفولته، أريد أن أعرف عن شغبك وشقاوتك لابد من أنها كانت شقاوة لذيذة، حتى صورك وأنت صغير أتلهف لرؤيتها.

رحت أسرد لك طفولتي، أنا الأصغر بين إخوتي والأكثر دلالًا بينهم، كانت طفولتي عادية وهادئة أقضي معظم الوقت ألبس الدمى ثيابها أو أرسم أو ألعب مع أبناء الجيران، أو أسقي ورد الجوري مع أمي، كنت مولوعة بسندريلا، فلة والأقزام السبعة، الشئ الوحيد الذي كان يميزني أنني نضجت في سن مبكر، دائما ما كنت أنظر

للأشياء من زاويتي الصغيرة بمنطق أكبر مني، ودائما ما كانت تثني أمي على تعقلي، حتى عندما كنت أبكي لسبب ما، أنزوي في غرفتي وأبكي في صمت كي لا يسمعني أحد، أستدرجك بالحديث عن طفولتي كي تحكي لي قليلًا عن طفولتك أيضا، لكن تعابير وجهك تتغير وتعقد حاجبيك كلما سألتك عن طفولتك كأني ارتكبت إثمًا !

حين أبديت استيائي من تحفظك على سرد لي تفاصيل حياتك كنت تذكرني بمقولة لكاتبك المفضل دوستويفسكي " ينبغي أن يبقى دائما شئ مجهول في داخلك"، لكني أعترض :

- حينما يكون هناك شئ مجهول داخلك فلن أتمكن من فهمك.
- تقبليني كما أنا؟
- تقبلتك على طبيعتك وأحببتك، لكني أريد كشف الغطاء عن أفكارك كي تسهل علي التعامل معك دون أن جرحك ودون أن أسئ فهمك.
- كلما كان الإنسان مجهولًا كان مرغوبًا أكثر.
- لكني أخشى أن تكثر بيننا الخلافات .

بابتسامتك الأخاذة أجبتني :

- لن نختلف مادمتُ أفهمك وأفهم ما يدور في نفسك وما دمتِ تحبينني.

كنت أعتقد أنني غامضة، لكنك أكدت لي بأنك أكثر غموضا مني، حتى أنني عندما أحببتك ألقيت بغموضي جانبا وجئتك شفافة، مكشوفة الأفكار، لم أكن لأخفي عنك أية أوراق، كشفت عن حبي، مشاعري، انطوائيتي، هدوئي، غضبي، غيرتي وجنوني، وبقدر غموضك كنت جذابا، عاقلا غالبا وأحيانا مجنونا، ومن أشد لحظاتك جنونا حين أرسلت لي رسالة تقول أنك تحت شرفة غرفتي وتريد أن تراني!!

جمدتني الدهشة من هذه الرغبة المجنونة في ساعة متأخرة بعد منتصف الليل ببضع من الحنين، أسرعت إلى الشرفة لم أصدق حتى رأيتك هناك مقابل منزلنا ثم

دابت الدهشة واشتعلت نيران الشوق، وطالت حتى وجنتاي وصارت شديدة الحمرة، كنت أراك هناك قريبا مني تبتسم لجنون فكرتك، تبادلنا نظرات شوق لزمن من الحب لم يقطع نجوانا شئ كان الشارع خاليا إلا مني ومنك والحب ثالثنا، وورود الجوري التي أصبحت شاهدة على حبنا، الآن أخيرا تمكنَت من رؤيتك، لطالما حدثتها عنك لساعات من الشغف، على قدر قربك مني كنت أتمنى لو اقتربت أكثر، لتمكنت من ملامسة ذقنك، لعانقت كفك، وتلك الندبة في جبينك ربما لو قبلتها لشفيت ! والهالات حول عينيك لو مررت أناملي عليها بلطف لغادرت، وعروق يدك البارزة لو وضعتها على خدي لهدأت، مأخوذة أنا بكل تفصيلة منك حتى طريقة كلامك ومشيتك، حتى التفاصيل الصغيرة تلك التي لا تعيرها أي اهتمام أحبها جدًا، حتى تلك الساعة البيضاء التي تلازم يدك اليسرى أحبها رغم أنني أغار منها لأنها أقرب مني لنبضك.

حتى الورد في الشرفة فاح أريجه أقوى من أي يوم مضى، كأنه رحب بحضورك، عبق عطره المكان برائحته النفاذة وتغلغل في وريدي ، وتوهج قلبي لقدومك وأحببتك أكثر! في ذلك اليوم شعرت وكأننا روميو وجولييت.

شغوف أنت بالأدب الروسي، روايات ليو تولستوي والعملاق دوستويفسكي، لكنك تحب الأخير أكثر ربما لأن تعقيدات شخصيات الرواية تشبهك، أحاول تقليدك أنا أيضا فآخذ واحدة من أعماله ما إن أغوص بين السطور حتى ينتابني صداع!! مثقلة بالتعقيدات والإضطرابات النفسية ربما لو أتممت رواية واحدة سأجن! أحاول أن أثنيك عنها قليلا لكن دون جدوى، تجلس قبالتي وتركيزك كله بين السطور، فجأة أصبحت أغار من رواية تشغل عيناك عني.

أتأفف بضجر، ثم أنتزع من يدك رواية "الفقراء"، بشغب تطلب مني باقتضاب أن أعيدها إليك، فأقول لك:

- لا أريد أن تنتقل إليك عقدة دوستويفسكي.

فلا تجد سبيلا إلا الصبر على شقاوتي فتقول مهددا:

- سأكمل قراءتها حين أعود للمنزل.
- لا يهم، المهم ألا تقرأها حين تكون معي.

تروقني الروايات الرومانسية أو الدرامية حتى روايات الرعب،والبوليسية أود لو نتشارك قراءة رواية معا! أحلم أن نجلس في مكان معا نحتسي أكواب القهوة الساخنة، نقرأ الرواية ذاتها في الوقت ذاته معا أريد أن تقرأها لي بصوتك. أخيرا استجبت لطلبي المُلح، لا يمر يوم، لا أنهي معك مكالمة أو محادثة حتى أخبرك برغبتي، رضخت لي بشرط أنك أنت من ستختار الرواية فلم أمانع، استشعرت بلذة بالنصر سأجعلك تقرأ رواية رومانسية رغما عنك، عند فراغك من العمل ذهبنا إلى مكتبة المدينة وأخذنا طاولتنا بعيدا عن الجميع، كانت شبه فارغة! شابان يجلسان في الطاولة المجاورة للباب، فتاة تفصلنا معها طاولتان كان تتسلى بالهاتف أكثر مما تقرأ، أخذت رواية من الرفوف وجلست في الكرسي المقابل لي وبدأت تقرأ، حقيقة لم أستوعب حرفا واحدا مما كنت تقوله،زج بي منظرك في رغبة مباغتة لتأملك كنت غارقة في مراقبة حركة شفتاك وانت تقرأ، أتنغم بنبرة صوتك، سهت في تفاصيل وجهك وتقاسيمه ورحت أتأملك بلهفة حتى ارتج قلبي، أحب تأمل تقاسيم وجهك الرجولية في كل مرة أتأملها كأنها المرة الأولى التي أراك فيها، وتضرم نار الحب في أطرافي، بدأت أردد حروف اسمك في نفسي..

أنيس.. أنيس ق لبي.. أنْس وحدتي.. آنس نبضاتي.. مؤنس وحشتي...

ما إن أنهيت قراءة الفصل حتى رفعت عيناك إلي وجدتني في حالي قد اشتعل القلب حبًا و بلغ مني الهُيام مبلغه، وزاد قليلا كرما منه، استهوتك نظراتي لحديث حب سري يقرأ في سطور العيون.

قبل أن تأتي لم أكن أحب نفسي، أنا أحببت نفسي من خلالك ، وتصالحت مع نفسي حين التقيتك وعشقتك، علمت حين أحببتك لماذا كنت أحتفظ بالحب في قلبي دائما، حتى جئت أنت ووهبتك كل الحب؛ لم يكن بمقدور أحد أن يجعلني أحب نفسي مثلك، أنا أقدس عمري لأنك فيه.

كنت أنتظرك في مقهانا المعتاد الذي نرتاده دائما،يحمل رائحتنا في فضاءه، يحفظ ذكرياتنا في أرشيف أركانه، طاولاته محملة بأحاديثنا وصمتنا ولهيب أشواقنا، أنظر إلى الساعة، تأخرت ربع ساعة عن الموعد ليس من عادتك التأخر، إرتديت فستانا أسود لونك المفضل أسفل الركبة ببضع سنتيمترات وبفتحة قصيرة من الخلف تزين عنقه حجرات من الجوهر الأسود، استعنت بخبرة ريم وزينت وجهي بمكياج ناعم، وحذاء مناسب للفستان.

لكنك تأخرت، رحت أقابل المارة بعدما أصابني ملل، إلى أن لمحتك واقفا هناك برفقة فتاة شقراء طويلة، كانت جذابة وأكثر أناقة مني ! كمن وخز قلبي بإبرة وأنا أراك تتحدث إليها بأريحية، تمزقت روحي وانشطرت من الغيظ، اشتظت غضبا وغيرة وحنقا، صرت أغلي كبركان ثائر، لم أكن أستحمل فكرة أن أراك بجانب امرأة أخرى، أفقد صوابي، ينزف قلبي، كل أنواع الدمار تحل بداخلي.

أخيرا لوحت لها بيدك مودعا وجئت إلي !

وجدتني أفور والدماء قد احتقنت في وجهي، نظرت إلي بريبة وأمسكت بيداي اللتان كانتا ترتجفان من فكرة وسوست لي بها الغيرة قبل قليل"إنها تريد سرقته منك" دست هذه الفتيلة في نار غضبي ورحلت.

سألتني:

- مابك حبيبتي ؟؟

صحت فيك بعد أن التفت المقهى كله إلي :

- لا تلمسني !!

بدأ الكلام والعتاب يخرجان من فمي كالحمم لا أذكر ما قلته في نوبة الغضب تلك التي أصابتني، فهمتَ ما الذي يوسوس في نفسي فاستدركت:

- تلك مروة زميلتي في العمل كنا نتحدث بشأن ملف نسيت مراجعته اليوم.

واجهت تبريرك بكل عناد، وكبرياء مخذوش، خيل لي بأن الجميع قد رأوا نزيف كبريائي، خرجت أجر أذيال الخيبة.

ما إن وصلت إلى المنزل حتى استجبت لرغبة البكاء التي اجتاحتني، تكورت على نفسي كجنين واستسلمت لنحيب طال ساعات حتى انفطر قلبي من البكاء.

أخذت هاتفي المرمي في زاوية الغرفة، وجدت رسالة منك

(لم أكن لأصدق بأنكِ لاتثقين بي !!)

رميته مجددا وضمني النوم إليه بعد أن أشفق علي من انكساري.

في صباح الغد لم أذهب إلى الجامعة ولم أخرج ولم أجب على اتصالات ريم، لزمت غرفتي التي بدأت تفوح برائحة البكاء والحزن، أبتلع غصة الجرح التي بدأت تنهش أعماقي، لا أقبل بأن تكون مع امرأة أخرى، أن تمنحها قلبك، أن تنظر إليها بالطريقة ذاتها التي تنظر بها لي، أن تهديها ابتسامتك، غبت في دوامة أفكاري السوداوية حتى أغدقت عليّ بالجوى، أتأمل الفضاء حولي يبدو كل شئ أسود قاتم.

مرَ أسبوع من الخصام، سبعة أيام، ١٦٨ساعة ، سبعة أيام دون ابتسامة تبدد عتمتي، دون نظرة تسقي زهرة روحي، دون لقاء يطفئ لهيب قلبي.

مر يوم من البكاء، يوم من الوجع، يوم من العتب، يومان من الحنين المفخخ، يوم من إعادة قراءة الرسائل ويوم من الندم.

كنت أعلم أنك صادق، لم يسبق أن كذبت علي من قبل،دائما ما التمست الصدق في كلماتك، حتى مشاعرك التي قل ما تعبر عليها بوضوح، لا تحب الإفصاح عنها دائما، كأنك بتعبيرك تنقص من كبريائك، لكن رغم قلتها كنت راضية بها، لا داعي لأن تخبرني كل يوم بها، يكفي أنني كنت أستشعرها في نظراتك، في حرصك علي، في معاملتك معي، كنت تفضل الصمت بدلا من الكذب، قلت لك يوما:

- لا يعرف خبث الرجال طريقا إليك.

أجبتني بابتسامتك:

- وبريئة أنتِ من كيد النساء.

وهكذا أحببتك بلا كيد النساء، وأحببتني بلا خبث الرجال.

لكن غيرتي مجنونة وأنت تعلم مقدار جنوني ومقدار حبي لك، أن تكون مع امرأة أخرى بأي صفة كانت تفقدني صوابي وأصبح كالمجنونة لا أحسب تصرفاتي، لم تكن المرة الأولى التي يحصل بيننا خلاف ولا أول مرة أغار عليك، أغار عليك من أبسط الأشياء، حتى من النوم الذي يسلبك مني حين نكون نتحدث، وحتى من عملك الذي يشغلك عن الإهتمام بي، لكنها كانت المرة التي نطيل فيها الخصام طول هذه المدة ذقت فيها معنى مر الغياب.

لم يكن غيابنا يطول لأكثر من يومان، تبادر بالصلح بنكتة أو رسالة صباحية أو بكلمة "اشتقتك" أو "جوريتي".

الآن كنت أعلم أنها غلطتي لكني عاندت بكبرياء جامح، وعاندت أنت أيضا بكبريائك الذي لايكسره سواي.

مضت ثلاث أيام أخرى بمزيج من الفقد والإشتياق والدموع، بينما كنت أسقي الورود وأستسقي منها الأمل والراحة، رن صوت هاتف على نغمة الرسائل المخصصة له! رميت كل شئ من يدي وأسرعت إلى هاتفي لأتأكد من الإسم "أنيس قلبي" إنه هو أخيرا، ارتجفت يدي من الدهشة والسعادة معا كأنها أول رسالة، بل أحلى منها.

فتحتها وأنا أضع الإحتمالات لفحواها لكنها كانت مغايرة هذه المرة ليست برسالة صباحية ولا مسائية، ليست نكتة ولا " اشتقتك" ولا حتى "جوريتي"، كانت قصيدة، يعرف جيدا ولعي بالقصائد، كانت قصيدة ل نزار قباني "مابين حب وحب أحبكِ أنتِ"

وما بين حب ، وحب

أحبك أنت

وما بين واحدة ودعتني

وواحدة سوف تأتي

أفتش عنك هنا وهناك

كأن الزمان الوحيد

زمانك أنت

كأن جميع الوعود

تصب بعينيك أنت

فكيف أفسر هذا الشعور

الذى يعترينى صباح مساء

مرفوقة برسالة قصيرة(جوريتي الغيورة جدا، أحبكِ جدا، أحبكِ أنتِ فقط...)

أجبتك فور انتهائي من قراءة القصيدة (وأنا احبكَ أكثر)

ذابت صخرة الغضب جمرة الأشواق وجرفنا الحديث مأخوذين بسكرة عشق اعترت كلانا، ما كنتُ لأفوت على نفسي التلذذ بكلمة "أحبكِ" التي لا تقولها دائما !! ثرثرنا لساعات تحدثنا في كل شئ وفي اللاشئ وأحيانا كنا نلوذ بصمت حميمي. استغلت لحظتنا هذه بسؤال مباغت عن والديك، لكنك غضبت مني وأغلقت الخط في وجهي، فقاطعتك مجددا لأسبوع كامل حتى أرهقتَ بالإعتذارات.

جاء الشتاء حاملا معه غيثا من السعادة، وغدقا من الحب، وذات مساء ممطر ارتديت كنزة صوفية بلون أحمر مخملي، كنت قد أهديتني إياها في عيد ميلادي،

تقول أنها تناسب بشرتي البيضاء وخدودي الوردية، لذا ارتديتها وذهبت لرؤيتك، كانت تتساقط قطرات خفيفة ناعمة من المطر تداعب الأرض، جلست أحكي لك عن يومي وأنت أيضا.،ما إن اشتد المطر حتى سحبتك من يدك وأخرجتك من المقهى، رمقتني باستغراب، أعلم أنك لا تحب المشي تحت المطر، فدفعني جنوني لأجعلك تجرب معي متعة الوقوف تحت المطر، أن يغسل المطر عن قلبك غبار الحزن، أردتك أن ترفع وجهك و تلامس القطرات الناعمة لتزيد وجهك وسامة، لترسم الغيوم ابتسامة على وجهك وترفع أمنياتك للسماء.

وقفت تحت المطر، فتحت ذراعي ورحت أدور حول نفسي ببطئ أنتشي من رائحة التراب، وبقيت أنت تحت ظل بناية، أغلقت عيناي وتركت نفسي ترقص بفرح مع المطر، حتى أحسست بيد تجذبني إليها، كنت أنت أخذتني من ذراعي إليك، وأخذت قلبي إلى قلبك، احتضنتني لأول مرة بيد من شوق ويد من لهفة أسكنتني صدرك، كان رأسي يقف عند قلبك تماما، أستمع لنبضاتك المتسارعة اشتد المطر، وشددت علي أكثر حتى آلمتني ضلوعي، وما أحلاه من ألم! كأنك تخاف أن أنفلت منك، ولو اجتمع الإنس والجن على أن يسلبوني منك ما استطاعوا، فأنا قدرك.

تشربت الأرض من ماء المطر، وتشرب قلبي من رائحة أنفاسك، ومن ماء حبك حتى ارتويت، ولأول مرة لم تنل مني نزلة البرد ولم تصبني، كان حضنك دافئا بحرارة أشواقك ولهيب لهفتك، دفع عني المرض، ورفع عني الوَلَه، وأغرقني في حب عناق تحت المطر، ولو سألني أحدهم عن أسعد لحظة حب لقلت : عناق تحت المطر !

لو أن المطر لم يتوقف، لو أنك أبقيتني بين ذراعيك، لو بقيت أستمع لنبضاتك عن قرب، لو أنك أطلت العناق.

فيما مضى، قبل أن يضعك القدر في طريقي بكثير، وقبل أن ألتقي بعيناك بقليل، كنت أعاني من الخوف الرهيب،محملة بقدر كبير من القلق.

من كل شئ، من المجهول ومن اللاشئ، ما إن لمحت عيناك ذات صدفة حتى سكنتني راحة بشكل كبير لم أشعر ولو بجزء منها من قبل، وتلاشت كل المخاوف أمام عيناك

وصارت هباءًا منثورًا، كانت غالبا ما تجز بي انطوائيتي في حالة كآبة طويلة، جئتَ وأخرجتني من دوامة اضطرابات سوداوية، فزت بهدوء حب ساكن، وأصبحت الاضطرابات نسيًا منسيًا.

كنت لي خير أنيس وأفضل أنس، تغلبت على وحشتي بالأنس إليك، ولحديثك، كسبت راحة وكسبت قلبك معا، مرة أكون وردة ناعمة ومرة أصبح شوكة جارحة!

كانت المزاجية تقلبني ذات اليمين وذات الشمال عشر مرات في اليوم، فتراني كل ساعة بحال كحركة المد والجزر بلمسة حانية منك هدأت أمواج مزاجيتي وتوقفت عن التضارب.

حتى الكوابيس التي كانت تؤرقني وتحرمني النوم، غادرتني واحتلت الأحلام الجميلة مكانها، دائما ما أراك في أحلامي، مرة مبتسما لي، مرة ممسكا بيدي، وأحيانا كثيرة أراك تهديني وردة جورية، انتزعت من قلبي كل الأحزان وصارت من العمر المنسي، برمت مع نفسي عقد هدنة وسلام في حضورك، فلم يمكنني إلا أن أحبك أكثر من نفسي ! كيف لا وأنت روحي وكل ما تمكله نفسي، كل ما كان في وسعي أن أشرب من كأس هواك حتى أثمل وتمنيت أن لا يفيق قلبك من سكرة عشقي.

كنت قد قدمت إلى المدينة قبل أسابيع قليلة من لقاءنا الأول! قلت لي بأنك وحيد هنا لا تعرف أي أحد، وأنني أصبحت في وحدتك كل شئ ! تجنبت هذه المرة الحديث عن عائلتك كي لا أفسد حديثنا الحميم، رغم أن الفضول ينهش عقلي ويقلبه شكوك كثيرة تساورني حيال أمرك، لكن لا أجد رأس خيط أهتدي به إلى الحقيقة، واسترسلت حديثك الذي هزني :

- القدر هو الذي أراد لي أن أشد أحزمتي وأنزل هنا، القدر هو الذي ساقني للبدأ رحلة البحث عنك دون أن أدري حقا أنني أبحث عنك، البحث عن الحب ليس من أولوياتي لكن القدر جعلك تصعدين سلم الأولويات لتكوني أولها، وقدرك أيضا أن تمري بمحاذاة طريقي، بينما هناك طريقان اثنان يؤديان إلى الجامعة، وبما كانت مسافتهما أقصر من هذا الطريق، لكنك

القدر جعلك تختارين الطريق الذي رسمه لك، نحن مسيرون في دروب أقدارنا حتى حين نقدم على فعل شئ بعد تفكير مسبق يكون ذلك وفقا للقدر الذي اختاره الله لنا، قدرك أن تهمي بي وقدري أن أهم بك، القدر يحاصرنا ويواجهنا مهما فررنا منه يظل يلاحقنا حتى يأذن الله له بالرحيل ، لذا علينا أن نواجه أقدارنا بالرضا كيف ما كانت.

- أأفهم من كلامك بأنك راض عن النفق الذي حطنا فيه القدر؟
- لقياي بك ليس نفقا ، لقيانا جنة من جنان القدر.

تستدرك بشئ من البؤس:

- يد القدر التي خيطت ثوب لقيانا يمكنها أن تقصه وتفصله !!

بكثير من الدهشة فهمت قصدك، ولاحت لي كلمة "الفراق" في الفضاء الذي بدا مظلما في لحظتها، وردد الصدى كلمتي "فراق" و "فقد" بصوت مخيف، ارتجفت ثنايا قلبي وأطرافي لهذه الفكرة التي لم تزر خاطري من قبل، اغرورقت عيناي بالدموع فشبكت أصابعي المرتعدة بأصابعك وشددت عليها بقوة كأنني ارجوك أن لا تترك الفراق يقطع ثوب لقاءنا، لمحت في عيناك طيف دمعة سرعان ما طردتها بابتسامة باهتة وقلت لي:

- إن اضطررت أن أعاند القدر من أجلك فسأفعل!

ببحة صوت حزين مرتجف قلت لك:

- عسى الله ألا يجعل لطريقنا مفترقا .

عادت إلي فوبيا الخوف من الفقد منذ حديثنا ذلك، وعدت إلى الحزن الذي اشتاق أن يشاطرني السرير، كنت أعاني من فوبيا الفقد حين فقدت جدتي حين كنت في سن السادسة من عمري، قضيت في منزلها أحلى لحظات طفولتي، كنت أتوسل لأمي لكي أبقى معها، تحكي لي قصصا، تمشط شعري تمرر أناملها الحنونة على شعري قبل النوم

رغم كبر سنها، لو وسعها أن تضع الشمس عن يميني والقمر عن شمالي لفعلت، كأنني حفيدتها الوحيدة، هذا ما جعل أبناء خالي وخالاتي يغارون مني ويحسدونني على الحب الذي كانت تكنه لي، إلى أن أصابتها حمى شديدة لم تفارقها حتى فارقتها الروح، ورحلت إلى خالقها، مرضت بعد موتها حتى لازمت الفراش لأكثر من شهر، كنت أصغر من أن أتقبل موتها، لم يتركا أبي وأمي شيئا إلا وفعلاه لي كي أعود لطبيعتي، لم يتركا لعبا إلا وجلباها لي، حتى القطط والعصافير، لكن لم أكن أريد شيئا غير عودة جدتي!

بعد مرور الشهور تحسنت حالتي بتدريج طفيف حتى تجاوزت الأمر وكبرت، كبرت ليلاقيني فقدا أكثر فجاعة من الأول، وأعمق جرحا! فقدت أختي الكبرى، الأقرب إلى قلبي، قطعة روحي، اختطفها الموت بغتة، رجعت إلى خالقها مخلفة رواءها روحا تئن، وقلبا ينزف، رحلت ورحلت معها السعادة والراحة، أصاب الوهن قلبي منذ فقدها، لكن قدر الله ولم أكن لقدر ربي معارضة، لكن الحياة بعدها بهتت صارت الأيام والأعياد كلها متشابهة بمعطف الحزن الباذخ، والوجه المكسو بطبقة من الألم، كان فراقها من أكثر الخسائر فداحة ودمارا. واتسعت فجوة الفوبيا في نفسي، أصبحت أخشى أن أفقد أحدا من أهلي أو أصدقائي، كانت لحظاتي الأكثر أنانية حين ناجيت الله بأني قادرة على تحمل فقد الجميع إلا أنتَ ! الأكثر أنانية على الإطلاق، والأكثر وجعا.

لم أكن أعني ماقلته بالضبط، ماكنت أقصده أن قلبي سيتوقف عن النبض إن فقدتك !

الفقد يختار ضحاياه بعناية، بسبق الإصرار والترصد! لايقرب إلا أشيائنا المقربة، ولا يطول إلا من لاتطيب الحياة دونهم، ليجعلنا كجثث متحركة في دروب الحياة، كأنه خلق ليفجع القلوب، لو كان الفقد يعلم بما يخلفه من دمار في كياننا، وعن الحرائق التي يشعلها بين طيات ضلوعنا لما طالت يده أحدا من أحبابنا أو أشياءنا المحببة لما رمى بنا في غياهب الوجع، لكن الفقد لا قلب له.

*****

جلسنا أنا وريم في باحة الجامعة بعد نهاية المحاضرة، غرقنا في صمت طويل لم تكن من عادتي ولا من عادة الريم أن نجلس دون أن نعلق على إحدى كلمات الدكتور او مداخلات الطلبة أو تقييم لباس الطالبات(موهبة ريم التي لا تتوب منها!) أو دون أن أحكي لها عن "أنيسي"، شبح الفقد صار يلاحقني كان بين عيناي، ولكي أطرده عني التفت إلى ريم مستنجدة منها أن تنقذني منه! لكنها كانت ساهمة في اللاشيء، نظراتها ممتلئة بخوف وقلق! وضعت كفي على يدها لأستفسر منها الأمر، حلم الهجرة الذي يراودها منذ زمن، تريد دراسة الأزياء بميلانو!

تقول لي:

- أخشى من المستقبل هنا، لن أجني شيئًا غير البطالة سأتخرج لأجلس في البيت و أتزوج! المستقبل هنا يبدو قاتما مخيفا، الكل يتخرج لينضم إلى صفوف العاطلين، ليس كـ أوروبا إن درست هناك وتخرجت سأعمل فوراً، لن أنتظر السنين ردًا، لن يأتي من شركات ومؤسسات ترمي بالسيرة الذاتية في الزبالة حالما تتوصل بها، هناك سأحظى بخدمات أفضل ومعاملة جيدة، لن يعاملوني كامرأة ناقصة تركت تربية الأولاد وخرجت للعمل، لن ينظروا إلي كأم ناقصة بل كإمرأة مكتملة، أريد ان أعيش في مجتمع يحفزني على النجاح لا أن يدفعني للفشل! لن نتقدم إن بقينا ننظر إلى المرأة بفوقية، وأنها لا تصلح إلا للإنجاب والطبخ وفي غير الأعمال المنزلية لن تنجح، نلصق على جبينها تهتمة الفشل إثمًا وبهتانا.

أجد كلامها ينطوي على الكثير من الصواب:

- لكن والدك سيعارض، لن يسمح لك!
- والدي بعد مرضه تغير كثيراً، لم يعد يتدخل في شؤوننا لا شيء يقف بيني وبين النجاح الآن.

- بإمكانك إثبات ذاتك وقدراتك هنا رغمًا عن أنف الجميع إن تفوقت في تطوير نفسك ستنجحين، ستصلين لهدفك، بإرادتك ستتغلبين عن جميع العواقب وتقفي في حناجرهم كالغصة، ليس كل من عبر البحر عبر الفشل!

تقفين تقلبين عبارتي الأخيرة في عقلك، لكنك كنت مصممة على رأيك، عنيدة مثلي، قلتِ بعد تفكير عميق:

- سأذهب عندما أتخرج، لن أنتظر المجهول القاتم المخيف الذي ينتظرني كشبح في طريق المستقبل، لا أريد أن أذبل في عمر الزهور.

بقدر ما تحملها فكرتها من صواب، أجد فيها بعض الخطأ، أصبح هاجس الكل أن يهاجر، كأنهم سيجدون وراء البحر كل شئ على طبق من فضة! كأن النجاح والمال سيقدم إليهم كالهبات، ويسكنون القصور ويخدمهم الخدم والحشم، تبدو الهجرة كطوق نجاة يتعلقون به خوفًا من الغرق في المستقبل الرمادي، متناسين أن المرء لن يأخذ إلا نصيبه من الدنيا.

من يريد جني الثمار، عليه أن يغرسها أولًا ويسقيها ثانيًا، وأن يصبر حتى تأخذ وقتها الكافي في النضج.

رحنا نجول أطراف المدينة ذات مساء، لم نترك مكانًا لم نمره، ولا زاوية إلا ونثرنا عليها سحر حكايتنا، تمشينا كثيرًا حتى أنهكت وتعبت قدماي، سحبتك من يدك إلى حديقة قريبة وجلسنا على كرسي، وفجأة أفلت يدك من يدي وذهبت، سألتك إلى أين ستذهب لكنك لم تجبني، ناديتك لكن لم تسمعني، جمعت قواي الخائرة وتبعتك، كنتَ هناك بالقرب من الأرجوحة تلاعب طفلة!

طفلة صغيرة شقراء، عيناها عسليتان كعينياي، وخدودها منتفخة شهية، حملتها بين ذراعيك وقبلتها بحنان، وصلتني همسات صوتك وأنت تغازل الصغيرة وتلاعبها، وقفت على مرمى من دهشتي وإعجابي، لم أكن أعلم أنك تحب الأطفال حتى أنه لم

يسبق أن تحدثنا عنهم، يبدو أن الطفلة أعجبت بك أيضًا، عوطت ذراعاها بعنقك، ومالت برأسها نحو صدرك أنها تريد أن تنام !

كم راقتني رؤيتك بكل ذلك الحنان، كنت تبدو كأب مثالي، رج مظهرك غريزة الأمومة لدي لأول مرة، لحّت علي رغبة في أن أصبح أما، منظرك وأنت تلاعب الطفلة هز مشاعر الأمومة عندي، لا شك عندي بأنك ستكون أبا حنونًا جدًا، استيقظت غريزة الأمومة داخلي، وكأنها تتعذى من عروق الحب، وتنبت من شجرة الحب، تمنيت أن أكون أما لأطفالك، أن أنجب ولدًا شقيًا يشبهك، برجولتك وكبريائك، بعيناك الرماديتان، بنظراتك الحادة، بعقدة حاجبيك وبشرتك السمراء، لو يكون نسخة مصغرة عنك لأحببته كثيرًا، ولعشقتك أكثر، وأراقبك وأنت تحمله بين ذراعيك وتلاعبه، وأنت تطعمه، أراقبكما عندما تغفوان إلى جانب بعض، أن نحكي له قبل النوم جزءًا من ذاكرة حكايتنا، أي شئ أقرب لقلب المرأة من أن تحمل في أحشاءها طفلًا من رجل تعشقه؟ أن تستمع لنبضات قلبين اجتمعا في قلب واحد صغير، أن تسرق قلب حبيبها، وتسرق قطعة من روحه،طفل صغير يشد وثاق الحب أكثر من ذي قبل، تحسست موضع بطني بلهفة مولعة لو أني أحمل قطعة منك كما أحملك في قلبي ستكون جنة الدنيا ونعيمها في أحشائي وبين يدي.

ثم أنزلتَ الطفلة من بين ذراعيك، قبلتها وعدت إلي، وجدتني لا أزال منبهرة من المشهد الذي كنت فيه، تدفق إلى قلبي شعور غريب لم أفهمه ساعتها، مزيج من الفرح وشوق الأمومة، والرغبة التي أضرمت في قلبي.

خرقتني نظراتك وأعادتني ابتسامتك الشقية إلى وعيي، أنت طفلي الصغير، كلما قلت لك هذه الجملة تنفجر ضاحكًا لأنك تكبرني بعقد كامل!!

العقد الذي كنت تكبرني به ماكان لينقص من عمر الحب ثانية واحدة، العقد الذي يفصلني عنك ما كان ليفصل عني غمرة المشاعر التي أستشعرها في قربك، أو يعكر صفوها، لا دخل لحسابات العمر والسنين في معادلة الحب، دائمًا ما أشعر بأنك كطفلي، كأنني أنجبتك، حقًا لقد أنجبتك من قلبي وعاطفتي! كيف لا وقد أحببتك

بعاطفة أم وقلب أم، وبمزيج من الحرص والخوف، المرأة في الحب تصبح بعاطفة الأم، فتحب أضعافًا مضاعفة، دائمًا أعتقد أنه من قواعد الحب أن نتزوج من نحب، من نحب فقط، لكن لماذا العشاق دائما يفترقون؟ يبيعون الحب بفراق بخس ويخرقون القواعد!

كيف بمقدور إمرأة أن تحمل في أحشاءها نطفة من رجل لا تحبه؟ دائما ماتراودني هذه الفكرة، أبحث لها أن أجوبة، لكن عبثًا أحاول التفكير، قد أتخلى عن كل شئ مقابل حلم ولد في لحظة انبهار، أن أصبح أمًا لطفلك، لنسخة مصغرة عنك.

حين عدتَ سالتني :

- مابك؟

نظرت إليك بابتسامة أخفي بها سر الحلم الذي جاءني بغتة، اكتفيت باللعب بشعرك كطفل صغير، ولذت بصمت خوفًا من أن تشي بي الكلمات.

التفكير بك من أهم عاداتي، حيثما كنت، وحيثما وليت، تفكيري وقلبي أجده مقابلًا معك وجهًا لوجه، يتأمل ملامحك.

أبدأ صباح يومي بالتفكير بك، لتشرق شمس يومي وتسطع بالفرح، وأنهيه بك لتكون قمر سمائي وضياء عتمتي، وما بين الصباح والليل هناك ساعات تؤنسني ذكراك فيها، تناثر الحزن منها.

التفكير بك هو سري المكشوف، هو لحن ناياتي، صوت ابتهالاتي، كأس خمرتي، جنون خيالاتي وترياق ضجراتي.

التفكير هو محوري الثابت في دوامة المتغيرات.

نتسامر طويلًا كل ليلة، تظللنا السماء بنور الحب يتشكل على هيئة قمر، وأشواق متناثرة على شكل النجوم، وأحيانًا شرارة لهفة كنجم هارب! تسهرنا الهمسات، والكلمات التي لا تفهم إلا بالصمت، ولأنك سيد الصمت، فإن أحلى الكلام ما يشي به

صمتك لطيفي ويلامس قلبي كنسيم عليل، نحتال على الكلمات، ونخالف جميع العشاق في أحاديثهم! لنا لغتنا الخاصة التي أضافت لمسة سحرية لحكاية عشقنا، ترمي بنا حالتنا اللغوية في حالة عشق لا إعراب لها ولا وجود لها في قاموس السابقين، هي لنا وحدنا أنا وأنت من نفهم أسرارها، نراقب السماء بأعين حب حتى نشعر بقربنا من بعض، وأن فضاء الكون يجمعنا.

في إحدى ليالي السمر سطع نجم عملاق أبيض في السماء، قلت لي أن اسمه "سهيل" وهو ثاني أكبر نجم في السماء بعد الشعرى اليمانية، أردفت مازحًا:

- ظهر الليلة في سماء حبنا لينقل حديثنا وحكايتنا لباقي النجوم الأخرى، سيحكي لهم كيف أظلنا القدر في ظله وأسكننا نعيمه، وكيف شغفتيني حبا، وكيف راودتك عن قلبك، وكيف أن نظرة واحدة عقدت قلبينا عشر عقد.

أردفت أنا :

- ومن شر حاسد إذا حسد.

وها قد صار هذا النجم أيضًا لنا شاهدًا علينا، محيطًا بأخبارنا، عالمًا بقلبينا.

في ذات ليلة من ليالي السمر قلت لي :

- أنا أشبه كافكا في خوفه من الأشياء التي تلامس قلبه، حين كتب كافكا إلى ميلينا في إحدى الرسائل "أخاف الأشياء التي تلامس قلبي يا ميلينا، لذا أهرب منها دائمًا وأهرب منك".
- فقلبي قلما يلين ويميل، لكنه حين يميل يميل ميلة واحدة مميتة، لكن الفرق بيننا أنني لا أقوَ على الهروب منك، أنا أهرب إليك، لا مهرب منكِ إلا إليكِ، أحتمي في عش حبك كطائر صغير يخشى الطيران.

أجيبك:

- لا مهرب لكَ مني، ولا ملجأ لكَ غيري، ولا يوجد من هو أحن عليكَ مني.

بتنهيدة أجبت:

- لا أحد.

ثم صمتت وطال الصمت، أناديك ولا من مجيب، سرقك النوم مني كما يفعل كل ليلة، لكن نومك هذه الليلة كان مختلفًا، قلبك استكان لكلماتي واستسلمت لنوم هنيئ بعد أن طردت عنك شبح مخاوفك.

ألا أقول لك بأنك طفلي الصغير؟

*****

الحياة حين نعيشها بمحاذاة من نحب تصبح حياتين بقلبين، وعاطفتين، وسعادتين تطرد أشلاء الحزن، لن تتمكن مصاعب الحياة من هزم شخص يعيش داخله شخص آخر، لن تنجح الحياة في هدم سور قلبك وهناك من يقيمه حين يراه ينقض، هما ببعضهما قويان لا تهزهما رياح الخريف، حين يضيق صدرك بهموم الحياة تلقيها بين ذراعي من تحب، وتصير رمادًا بين لهيب الحب، يضمك إليه حين توشك على الإنكسار ويرفعك، هو بك يكتمل، وأنت بدونه ناقص.

وأنت ملكت قلبي وامتلكت حياتي، حتى حين أكون في أسوء حالاتي تتحملني بكل ما أوتيت من صبر، أغار عليك من كل شئ ومن اللاشئ، أغار من عطر تستنشقه وقد فاح من امرأة غيري، من امرأة تلتقي عيناك بها صدفة، من تحية تلقيها على امراة غيري، حتى من ابتسامتك أغار عليها من أن تمنحها لشخص آخر، دائمًا ما تدفعني غيرتي إلى أفعال مجنونة، قد أقاطعك لأيام بسبب وسوسة غيرة، لا أجيب على اتصالاتك ولا حتى رسائلك، أقرؤها بشيء من الإشياق وأضعها جانبًا، لكنك رغم هذا لا تتركني أبدًا، أحيانا تخيل إليّ شياطين الكراهية بأنك ستتخلى، ثم أستشيط غضبا

منك وأنفجر في وجهك، كنت أتوقع أن تتركني في أية لحظة، لكنك كنت تعود إلي وتعيدني إليك كأنني لم أتفوه بكلمة تسيء إليك! أتساءل دومًا ما الذي يجعلك تتمسك بي في حين أن جنوني يدفعك لأن تفلت مني، كم من مرة في شرارة غضب طلبت منك الرحيل لكنك لم تفعل !

باشتعال الغيرة نفسه، بشئ من الغضب مرة، وطلبت منك أن تتركني، ولم أكلمك لبقية اليوم رغم أن شيئا من الندم كان ينغص في نفسي، وفي صباح اليوم الموالي، كعادتي أمر بمحاذاة طريق القدر، أجدك جالسًا على مقعد الذكرى تترقب قدومي ! رفعت حاجبي باستنكار، فابتسمت لي وذوبتني شوقا وانبهارًا، لم أملك إلا أن أضحك، فكرت في أن أسئلك لماذا أنت هنا؟ حتى خطر لي سؤال أوضح منه، ولا شئ يريحني كالوضوح:

- لماذا تتمسك بي رغم جنوني ؟

نظرت إلي نظرتك التي تخترق قلبي وقلت بابتسامة:

- لأن جنونك يعجبني.
- لكن جنوني مفرط، مبالغ فيه.

غمزتني وأجبت:

- هذا لأن حبك مفرط ومبالغ فيه.

لم أملك إلا دهشة وانبهار كجواب، كيف لك بأن تفهمني بكل هذه الدقة، بكل هذا العمق؟ كم يلزمني من العمر لأحبك كما تستحق؟

يقال "لا تعرف قيمة الشئ حتى تفقده"، أنا أعرف قيمتك دون أن أفقدك، عرفتها في رسائلك الصباحية، في السعادة التي يغمرني بها وجودك، تخلع عني حزني بابتسامة! شعرت بها في الأغاني التي تهديها لي، في صدق كلماتك أحسست بها في حرصك وخوفك علي، آمنت بها في صبرك الطويل على جنوني وعصبيتي، عرفتها حين تمسك

يدي وتشد عليها، أيقنت بها في نظراتك التي لا يفهم حروفها سواي، أعرف قيمتك كثيرا، لأني بدونك أكون دون قيمة !

أخذت ذات يوم أوراقًا من ورود الجوري بعد أن جففتها وبدأت أرتب بها حروف اسمك على ورق مقوى بأنامل مملوءة بعشقك، بين رشتي عطر سكبت عليها أنفاسي، بين نظرتين رحت أتأملها، ستعجبك حتمًا، بين ابتسامتين وضعتها في النافذة كي تجف، بين تفكيرين غرقت في تذكر نظراتك، وبين ارتيابين سكنت إلى حبك، وما بين صمتين ناجيت طيفك.

رافقتك لصالة السينما مساء يوم سبت، لمشاهدة فيلم حدثتني عنه طويلًا، فيلم أكشن، لم أبالي به حقًا، رغم أنك متحمس لمشاهدته، رافقتك لأنني كنت كل ما أبالي به حتمًا سرقة بعض من الوقت بجانبك لفائدة شوقي الذي لا يخمد، فأنا أدري كلما اقتربت منك أكثر، إزداد قلبي تعطشًا لك، حتما كنت أدري، وقفت أشاهد عروض الأفلام المعروضة ريثما تحضر لي الفوشار والشوكولاتة، كطفلة صغيرة، حتى تقدم إلي "حسام" زميلي في الجامعة تحدث إلي لبعض الوقت حتى عدت أنت ووجدتني واقفة برفقته، ودعت حسام بشيء من الإرتياب وجئت، عقدت حاجبيك مثلما تفعل حينما لا يعجبك شئ، بدأت وكأنك غير مكترث! لحظتها فقط انتبهت إلى أنك لم يعجبك تحدثي إلى حسام! لحظتها فقط، انتبهت إلى أنك تغار، سألتك عن الأمر، قلت:

- لا شيء.

بنظراتي المتفحصة رحت أتفحص هروبك من الجواب:

- متأكد أن شيئًا لم يزعجك أو ربما أحدًا؟
- لا أبدًا، انتظرت كثيراً في الطابور، هذا كل شئ.

هذا أنت لا تتغير، لا تسأم الصمت، لا تزال تخفي مشاعرك بطبقة برود جمدت فرحتي التي سترتها عنك، حتى تكشف أنت عن غيرتك، لكنك أبدًا لا تتغير، عادتك

المميتة باتت تزعجني كثيراً، أنا لا أجيد التكتم، وأنت لا تجيد غير الصمت، تعبث بصبرك بكل ماتبقى لدي من تصبر، عادتك الموجعة التي لا تتوب منها، كنت سأسألك لما أنت هكذا؟

لكن كبريائي أخرسني.

مضى أكثر من عام على حبنا وأنت مازلت تتمنع عن الإفصاح بأنك تغار.

أخذنا مقعدينا بالقرب من بعضنا ألا تفصلنا سوى أسئلة تدور في الحلقة ذاتها دون أن تجد جوابًا شافيًا، صمتك يجاهد أن يسترك، لكن ملامحك تفضحك، عقدة حاجبيك تشي بك، وهذا ما يريحني، اندمجت مع الفيلم وشغل حواسك كلها، كنتَ مأخوذًا بالفيلم بينما كنت أنا مأخوذة بتأملك، يغريني التأمل فيك، عندما تكون منغمسًا في عمل ما، باغتتك ساعة من الفيلم، لم يتبقى إلا القليل على نهايته، استغللت غفوتك ورحت أرسم حدودًا بإصبعي على وجهك، أرسم على خطوط جبينك، وأهمس :

- بلمساتي ستختفي الخطوط، لا لحظة لا أريدها أن تختفي أحب منظرها، أرسم على محيط عيناك هذه المساحة لي وهاته العيون هي من نصيب قلبي، ثم أرسم بيدي على شفتاك هاته الشفاه لي ابتسامتها من نصيب سعادتي.

استيقظت باسمًا كنت تسمع همساتي، قبلت إصبعي وأخذت يدي إليك، ورسمت على إصبعي الخنصر حدودًا وهمست كما فعلت معك:

- هذه اليد لي من نصيب خطوط وجهي.

مسكتَ خنصري:

- وهذا الإصبع من نصيب خاتمي، هنا سألبسك خاتمي وتصبحين كلك من نصيب كلي.

كلماتك قطعت حبل الشك الذي بدأ يخنق قلبي، كان صوت الإرتياب يردد داخلي بأنك لا تحبني!! رهبة الكلمات أرغمت كل الأصوات على الصمت، وتزحت الروح من سكرة كلماتك،

لمسة يدك الباردة على خدي الملتهبة، انتشلتني من شهوة التفكير بكلماتك، من نشوة الشعور بالسعادة سحبتني.

وخرجنا من صالة السينما، لم أعلم كم أمضينا من وقت في الطريق، ربما دقائق أو ربما ساعات، لم أسمع صوتك ولا صمتك، كنت في ذات دنيا غير هذه، عبارتين اثنتين رمتاني بين سكرتين من العشق، وبين سعادتين رفعتاني عاليًا.

كانت المرة الأولى التي تلمح لي بموضوع الزواج، بإيحاء واحد رججت قلبي رجًا، هززت مشاعري هزًا، وفي سماء العشق حلقت روحي فرحًا، بكلمات أطلت ثوب قدرنا حتى أسدل على شبح الفراق .

أتدري يا أنيس أن ريم لا تحبك، لا أدري لماذا.

ربما أدري، تقول أنك سرقتني منها! فأنا إما أمضي وقتي معك، أو في الحديث معك، وعندما أنهي الحديث معك أحدثها عنك، وأحيانًا كثيرة في التفكير بك، هي لا تدري أنك سرقتني من نفسي لا منها فقط، اقترب موسم الإمتحانات، ساعة الجهد والعمل، نمضي ساعات في المكتبة أنا وريم وزميلتنا هند، نراجع المحاضرات، نستدرك ما فاتنا من الدروس، نعمل على أمثلة امتحانات سابقة، وفي وقت الوقت الذي كنا نخصصه للراحة أحادثك فيها فأنت راحتي! أرمي بأتعابي على الطاولة وأصغي لهدوء صمتك، أخطف من كلماتك فرحة مباغتة، كاللحظة التي أطلب منك أن تغازلني!

لو أنك هنا معي، لقرأت سطور عيناك بدلًا من هذه الكتب التي لا يغريني فيها حرف واحد!

لحللت لغز شخصيتك الغامضة بدلًا من حل هذه الفروض، لو أنك هنا لتأملتك بهيام بدلًا من تأمل هذه المحاضرات التي تضجرني.

تنظر ريم نظرتها القاتلة وتهز حاجبها بطريقة لا يتقنها غيرها وتقول :

- سترسبين !

أنفجر ضحكًا من ملامح وجهها وكلمتها، كأنها تعلم ما يدور في نفسي !

أعود للمراجعة قبل ان توبخني ريم، أعود إلى الطاولة، وقلبي إلي لا يعود، وتفكيري معك يبقى.

في ذات صباح، بينما كنا منهمكات في الإعداد للإمتحانات، جاءتني رسالة منك تقول" ألم تتعبي من الدراسة بعد؟" غريب، لم أخبرك صباحًا بأني سآتي إلى هنا ! بنظرات من الدهشة والترقب رحت أبحث عنك، جلت المكان كله بترقب لم أجدك أبدا ! بعد خمس دقائق لم اشعر حتى مسكتني من يدي وسحبتني، اعتذرت من ريم وهند بطريقة لبقة وابتسامتك التي لا تفارق وجهك، تفحصتك ريم باستغراب، تقول بأنك سرقتني منها واليوم أكدت لها ذلك، مشينا مسافة طويلة حتى كدنا نخرج من المدينة، لم أكن أدري إلى أين ستأخذني، ما كنت أدريه هو أن لحظة الجنون اعترتك حتمًا، سألتك إلى أين ستذهب؟ لم تجب، اكتفيت بابتسامة، وما بدا القلق واضحًا على ملامح وجهي، نظرت إلي نظرتك .

الحنونة وقبلت يدي وهمست لي:

- لا تقلقي سنصل بعد قليل.

"My heart will go on"

أدرتَ جهاز الموسيقى وشغلت أغنيتنا، نثرت سحرها على الطريق، واستكان قلقلي بهدوءها، ثم وصلنا.

أخذتني من يدي مجددًا، لا تترك يدي أبدًا أينما ذهبنا، حتى عندما نجلس في المقهى أو في السيارة تظل ممسكًا بيدي، و حين نتمشى، كأنك تخاف أن أهرب منك، حتى عندما كنت غاضبة منك ذات مرة بقيت ممسكًا بيدي، ولو تعلم كم أحب تشبثك

بي، تمسكك بيدي حيثما كنا، خوفك من أن أتفلت منك أو تنفلت مني، تشبك أصابعك بأصابعي بكل حب وتمضي بي في دروب عشقك لأتوه فيك أكثر وأكثر.

تمشينا قليلًا ثم وصلنا إلى حافة جبل!

كان علوه شاهق ومخيف، أعاني من فوبيا المرتفعات دائمًا. وكمن قرأت الخوف على صفحة وجهي وشددت على يدي أكثر لتهدأ نفسي، قلت لي :

- لا تخافي، أنا هنا بجانبك.

جلست أنت وأخذتني من خصري وأجلستني بالقرب منك على بعد نبضتين من نبضات قلبي المتسارعة.

نظرت إلي واستدركت :

- أرأيت كيف؟

كل ما أراه أن أمام عينيك تتلاشى كل المخاوف، تنصهر كل المستحيلات ويصبح كل شئ معك ممكنًا، سهلًا ومحببًا.

أخيرًا انتبهت للمظهر أمامي، كان رائعًا، لا بل خرافيًا، كل شيء بدا صغيرًا أمام حبنا بعيدًا كل البعد عنا.

ملت برأسي على كتفك، ومالت معه الروح والقلب ميلة واحدة، وفنت كل المخاوف، كل القلق، وكل المتاعب صارت هباءًا منثورًا، لو أني أفهم كيف تذوب قلبي في لهيب حبك وتصهر فيه كل مايؤذي قلبي؟

مضت ساعات هناك دون ملل، ساعات من اللهفة المضرمة، ساعات على حافة جبل، وفي هاوية الحب.

قلتُ لك:

- الحب الذي لا يدفعنا للهاوية لا يعتبر حبًا .
- أتريدين أن تهوي من حافة الجبل؟

باستنكار أجبتك:

- أتريدني أن أموت؟!
- أنتِ من أردتِ أن تندفعي للهاوية.
- أريد أن أندفع إلى هاوية الحب لا هاوية الجبل.
- وما الفرق بينها؟
- في الهاوية من الجبل موت؛ والهاوية في الحب حياة، الأولى جحيم والثانية نعيم.

عدت برأسي إلى كتفك مجددًا أحتمي إليك، فأنا من ضلعك خلقت، ومن قلبك بصرت الحياة، أنا تلك القطعة التي خلقت لتكملك، وأنت الضلع الذي خلقت منه، أرأيت كيف؟ أنا وأنت لا يكملنا إلا قربنا من بعض، القدر لا يجمع قلبان عبثا، لم تلتق دروبنا حتى التقى قلبانا، نعم القلوب التقت أولًا من دون أن ندري، ثم التقينا في دروب القدر حيث شيدنا لحبنًا مسكنًا تسكن إليه قلوبنا وتهرب إليها من صقيع العالم.

أنا قبلك كنت دون ملجأ يؤويني، حتى جئت أنت وأسكنتني قلبك، كنت دون جدران أستند عليها كلما أنهكتني الحياة، أنت لي السند كلما ضاقت بي اتسع لي كتفك، حتى حين تقفل كل الأبواب في وجهي أجد بابك مفتوحا لي بالإبتسامة ذاتها تحتويني، أنت لي الوطن.

يقول فارروق جويدة:

"في رحمة الله أبواب مجنحة تؤوي القلوب التي عانت وتؤوينا" .

كنت أعلم أنك تعاني من شئ ما، أمر لا تشي لي به، لكن ملامح وجهك تبديه أحيانًا، تواري عني كل آلامك وأوجاعك. يؤلمني أن لا تقتسم معي أوجاعك، لحملتها عنك كلها، لو أعلم ما أصابك من حزن لا تركت ذرة واحدة تقعد على قلبك، شئ من الحزن يطل من عينيك أحيانًا، هناك ثقل تحمله في قلبك ويعذبك، يمكنني أن أحمل عنك قليلًا منه أو ربما كله، لو تتكلم، فقط لو تفرغ عذابك كله بين ذراعي وتبكي كطفل صغير، لكن مكابرتك تقف بينك وبين الإفصاح عما تشعر به، وهذا ما يؤلمني أن تتكبد شقاء عذابتك لوحدك.

انتهت فترة الإمتحانات واجتزنا المرحلة النهائية، لم يبق شئ يشغل بالي إلا رؤيتك قبل أن أسافر مع أمي، أذكر أنني كنت في طريقي إلى البيت بعد آخر امتحان، كنت أفكر في ماذا سألبس حين ألقاك؟ أي الحلي سأتزين بها؟ أي مكياج سأضع؟ حتى جاءني صوتك من الخلف، سمرتني الدهشة في مكاني وسرت في جسمي رعشة خفيفة، استدرت للخلف وكنت أنت بنظراتك المتأملة وبابتسامتك الساحرة، أطبق الإرتباك على الصمت، وعلت وجنتي حمرة خفيفة، قلت لك بنبرة مفاجئة:

- لم أتوقع أن أراك .

قلتَ وأنت تتأملني بحب رغم ذبول وجهي وملامحي المرهقة :

- أنسيتِ أن هذا طريق قدرنا؟
- لكن ليس في هذه الساعة.
- الأشواق لا ساعة لها .
- وكيف عرفت بأنني سأمر من هنا في هذا الوقت ؟
- أخبرني قلبي بذلك.
- تعني أن قلبك ينقل لك أخباري كلها؟
- نعم حتى تلك التي تخفينها عني.
- لكني لا أخفي عنك شيئًا.

- أخفيت عني ارتباكك .
- لم أكن أريدك أن تراني هكذا.

مددتَ يدك ورفعت خصلاتي عن وجهي وأمسكت وجهي برفق إليك وقلت:

- جميلة أنتِ في كل حالاتك .

ازدادت وجنتاي حمرة وأنت تتأملني كأنك تراني للمرة الأولى، بقيت أتاملك أنا أيضا للحظات من الشغف حتى لمست بإصبعك شفتاي كمن أضرمت النار في جسدي، رفعت إصبعك عن شفتاي ومسكتني من يدي ثم تمشينا معًا خطوات من الصمت دون أن ننطق كلمة واحدة، وبدون وجهة محددة، ثم توقفت فجأة كمن تذكر شيئا، أخذت تقلب جيوب بذلتك السوداء حتى عثرت على علبة صغيرة حمراء بشريط ذهبي، رفعتها على مرآى من انبهاري، قلت لي :

- أغلقي عيناك.

تتلاعب بفضولي وتزيدني فضولا بطلبك الأخير، أوافق على امتضاض، أنت تعلم أني لا أجيد الإنتظار!

أغلقت عيناي وتركت الأسئلة تقلبني، أحسست بلمسة خفيفة على رقبتي باردة، لذيذة كالأحلام .

أيقظتني من حلمي :

- إفتحي عيناكِ الآن .

وقفت تتفحص دهشتي، بنظرات الواثق من مفاجأته، رحت أتحسس عنقي، كنت قد جملته بسلسال ذهبي رقيق؛ يحمل قلبًا نقشت عليه حرفَي اسمينا .

تمنيت لو أجيبك، لو أشكرك، لكن السلسال كان قد خلب قلبي، أحببته حين لمسته للمرة الأولى ولمست حرفينا المنقوشة عليه، أمسكته بحب كيف لا أحبه وأنت من أهديتني إياه؟ و قلتُ لك أخيرًا:

- أحببته.

قلتَ بمكر:

- أكثر مني؟
- لاشئ أحب لقلبي أكثر منك، أحببته لأنه منك.
- وأنا أحسده.

رحت أعبث بالسلسال وبدلال سألتك:

- ولماذا تحسده؟
- لأنه خطف أنظارك عني!
- له ثواني من الإنبهار، ولعينيك تأمل العمر كله.

ابتسمتَ ابتسامة النصر أخيرًا ورفعت حاجبيك بإعجاب:

- صرت تحملين حرف اسمي على رقبتك.
- أنا أحملك كلك في قلبي و في تفكيري.

غرقنا مجددا في بحر تأمل لا نمل من الغوص فيه، تأخذنا أمواج الحب هنا وهناك، فأزيد حبًا لك، وغرقًا في عيناك، وكأنك قد طوقت عنقي بتعويذة عشق جديدة لا سلسال.

كلما تأملتك اكتشفتُ أسبابًا لعشقي لك، لذا آمنت بحبك وأحببت قدري الذي ساقك إلى قلبي، فتحتَ شهيتي للحياة ورحت أقبل الأطفال أبتسم لكل من أصادفه في طريقي حتى العابسين واليائسين من المارة، أخبرهم بابتسامتي أن هناك سعادة

تنتظرهم، هناك حياة جميلة وسماء نقية سيعثرون عليها حينما سأيخذهم القدر في دروب الحب، وحالما ستعثرون على الحب ستفتح الحياة لكم ذراعيها.

عدت للبيت بنشاط غريب، حتى أن الجميع تفاجأ من حماسي المباغت، أعددت الغداء مع أمي، جلسنا نتحدث في ترتيبات السفر، جاريت مشاغبة أخي، أسرعت للإستحمام وأنا أغني، ثم اخترت فستانًا ملونًا كألوان الصيف، بألوان فرشاة الحب التي لونت بها حياتي بعد أن كانت رمادية، وبين اللحظة والأخرى أتحسس موضع السلسال كأني أخاف أن يختفي! تجهزت قبل الموعد، سارعت بالخروج أخطو خطوات مشتاقة كأني ما كنت معك صباحا، أنا التي كنت أتماطل وأتأخر في المواعيد صرت أصل قبل الموعد وأجلس في انتظارك، أتسارع مع نبضي للقياك، كيف غيرتني؟

أترقب من نافذة المقهى قدومك، ثم تظهر أخيراً ويرتجف نبضي، تمضي بثبات ووقار، ما إن تصل حتى تبتسم لي :

- جوريتي الجميلة.
- أنيس قلبي .
- أرى أن السلسال مازال على رقبتك.
- سأظل أحمله في عنقي كما أحملك في قلبي إلى أرذل العمر .

بابتسامتك التي لا تفارق شفتاك:

- إذن ستسافرين .

زمت شفتاي بامتعاض:

- نعم غدًا ولأسبوعين كاملين.

زفرت:

- أسبوعين من الشوق، أسبوعين من الحرمان هذا كثير..!!

داعبت أناملك بخجل:

- أنا معك دائمًا في قلبك، في أحلامك وتفكيرك لن أفارقك، الذي يسكننا لا يفارقنا، لذا لن أودعك،لحظة الوداع جرعة حب أخيرة يتناولها المفترقون كتصبير لهم، كبلسم يخفف من جراحهم؛ ولهذا السبب أيضا لن أودعك مازالت لقاءات كثيرة تنتظرنا بلهفة أكثر مما ننتظرها.

الوداع يعري عن ضعفنا وهشاشتنا، أغلبنا يتفادى توديع من يحب ليس قوة إنما من صميم الضعف، ربما لو ودعناهم عن قرب لبكينا كالمرأة الثكلى، لتوسلنا منهم البقاء، لذا نكتفي برسائل كاذبة ندعي لهم فيها بالسعادة!

أما نحن فلنا شقاء العمر كله، ووجع القلب كله.

أباغتك بسؤال:

- ماذا ستفعل في غيابي؟
- سأشتاقك.
- أعني عن مخططك اليومي.
- سأفكر بك.

أتغلب على ضحكتني:

- بعد أن تنتهي من عملك أين ستذهب؟
- سأجلس على مقعد الذكرى وأتذكرك.

أضرب بيدي على كفك:

- حسنا وعندما سأرجع ماذا سنفعل؟
- سأروي ظمأ اشتياقي منك.

ونعود لعادتنا الصمت اللذيذ، دون أسئلة دون أجوبة، دون أحاديث يومية مملة.، معك يصبح الصمت لغة تضج بمعاني العشق، لو اجتمعت كل الحروف في صف واحد لهزمت أمام عيناك، أنت الرجل الذي لا يليق بحق عيناه إلا الكلام الذي يعجز التعبير عنه، أترك ملامحي تكلمك وهي مأخوذة في عشق ملامحك، وأفتح لك دفتر العيون لتقرأ من النظرات ما دونته لك، كيف سأصبر على انقطاع التأمل في عيناك؟

الحب معك حالة من الجنون لا يعرف الصبر مدخلًا لها، جنون الحب يتعارض مع الصبر كل التعارض، صرت أقل صبرًا لبعدك، أكثر استعجالًا لقربك، أنا التي كنت أتماطل في المواعيد وأتأخر عليها، معك صار الشوق يسرعني لأسرق من الوقت دقيقة من الحب بقربك كأنني قد فزت بكنوز الدنيا، وأي كنز أغلى على قلبي من قربك؟ دائما ما كنت تروضني على الصبر وأي صبر سيصمد أمام عيناك؟ ينصهر الصبر في حبك ويذوب قلبي لقربك، الصبر معك منفني، الصبر في عشقك ضرب من العدم.

حزمنا حقائب السفر وسافرنا لزيارة خالتي ، حزمت أمتعتي كلها عدا قلبي تركته لك، ولكم ضاق بي الكون في بعدك، في كل مكان أزوره أتمنى لو أنك زرته معي لربما بدا أجمل مما هو عليه، وفي كل مقهى أجلس فيه آمل لو أنك كنت هنا تحتسي قهوتك معي، بدت لي المدينة أصغر من المقهى الذي كنا نرتاده ! قلبك الذي كان يحتويني أكثر اتساعًا من هذه المدينة وأكثر أمانًا منها، ضجيج السيارات، ضجيج السياح والمقيمين، ازدحام الأماكن والطرقات بالناس، لكن لا شيء يغريني سوى قلبك وعيناك، تلاحظ أمي ضجر جسدي، وضيق نفسي، تسألني بقلق"مابك؟" أجيب بتغير المناخ، لم أكن بكاذبة، للقلب أيضا مناخه الخاص، يتعكر صفوه في بعد الحبيب وتغشاه ضبابة مثقلة بالفقد وعاصفة من الإشتياق. وتصفو سماؤها في قرب الحبيب، تهدأ العاصفة بالعناق وتشرق الشمس باللقاء، ولكم تعكر صفوي في هذا السفر وما زاده تعكرًا ابنة خالتي المتزوجة سارة، كل يومين ثلاثة إلى أمها تشكو زوجها الفظ، لا يعرف إحسانًا في معاملته لها، لغته تتمثل في الضرب، كلما أزعجه أمر أو إن لم تعجبه طبخة أبرحها ضربا! حتى زيارتها لبيت خالتي تكون خلسة حين يكون في عمله وتعود قبل عودته حتى لا يتكرر مشهد العنف ذاته، حدث في آخر زيارة لها

أن كانت عينها متورمة بشكل يثير الشفقة، ويثير الاشمئزاز من رجل مثله والأكثر استفزازًا صبرها الذي لا معنى له إلا سذاجتها، تصبر المرأة القوية على فقر زوجها، على صعوبة ظروفه، على ضغوط عمله قد تصبر على أي شئ إلا عند الإهانة المبالغ فيها والخيانة، هنا يتجرد الصبر منها، ويترك لقوتها التحكم في زمام أمورها لتوقفه عند حده، المرأة التي لا تعرف الفرق بين الصبر عند الشدائد، والصبر على دنائة الزوج وفظاظته إمرأة ضعيفة ساذجة، لو أنها وقفت في وجهه من اليوم الأول لما تجرأ على التطاول عليها، لحسب ألف حساب لها قبل أن يرفع يده، لكنه يجد في خضوعها وعبوديتها شيئًا من يرضي به نشوة نفسه المريضة، فيصبح العنف ساعتها أمرًا ميسرًا له كشرب كأس ماء، أستغرب كيف أن هؤلاء يسمون أنفسم أزواجًا وهم لا يحملون من صفة الأزواج شيئا إلا لقب كاذب، ألم يقل الله تعالى :

" وجعلنا لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة"

لما خلق الله حواء من ضلع آدم، وقطعة منه ليسكنها إليه ويحفظها ويسكنها إليه، ولأنها قطعة منه من الواجب والأولى أن يحفظها من شرور نفسه.

أسالها بفضول:

- لمَ لم تطلبي الطلاق حتى الآن؟
- أخاف من نظرة المجتمع .
- نظرة المجتمع لن تحجب عنك اليد التي تعنفك.
- ماذا سيقول الناس عني؟ لو كان فيها خير لما طلقها زوجها؟
- سيزورك الخير حين تتخلصين من أغلال الذل هذه، حين تستعيدين حريتك وكرامتك كامرأة، ستكونين الخير بعينه. حياتك ستعيشينها أنت لنفسك ولمرة واحدة فقط، إختاري كيف تعيشينها دون التوجس من نظرة المجتمع، دون الخوف من اليد التي تبطش بك، تحرري من جحيم عبوديتك لتنعمي بالحرية.

لم تعقب، غرقت في تفكير عميق يبدو أن كلامي أقنعها قليلًا، ثم فجأة بعد ساعات من التفكير نهضت كمن تذكر شيئًا، خلتها ستعود لمنزلها، لكنها اتجهت إلى المطبخ حيث كانت خالتي تجهز العشاء وقالت لها:

- لن أعود لذلك المنزل أبدًا.

تشاحن الجو بتذبذبات من نظرات متوجسة من خالتي، نظرات اللوم من أمي، تعلم أنني من دفعها إلى ذلك، أخذتني بعيدًا عنهم وبدأت توبخني:

- لماذا لعبت بعقلها؟
- لم أتلاعب بعقلها، أنا فقط فتحت بصيرتها.
- أنت لا تعلمين ماذا سينتج عن فعلتك.
- لن يحدث شئ، أزلت الغشاوة عن عقلها لتفكر بالمنطق.
- أنا حذرتك، لن تجلبي لنا بجنونك إلا المتاعب .

وانضمت إلى خالتي ليثنيا سارة عن قرارها، لكن كلامي كان قد فعل فعلته، وبلغ مبلغه في تفكيرها، استغربت من قوتها وتصميمها المفاجيء كأني قد نومتها مغناطيسيًا، لم تمر ساعتان حتى علا صراخ في منزل خالتي، كان هو بمنظره المثير للإشمئزاز والقرف! لم يترك سبًا ولا شتمًا إلا وتفوه به فمه، أما سارة فقد وقفت أمامه بكل ثبات تنظر إليه باحتقار، أنهكه الصراخ والسب، سكت وراح يلهث، بنبرة ساخرة قالت له:

- أنهيت كلامك؟
- تصلب وجهه من الدهشة واحمر وجهه غضبًا بتحديها له: ستعودين معيي إلى البيت حالا وإلا..

بابتسامة ساخرة:

- وإلا ماذا؟ ستضربني مجددًا؟ ستصحق عظامي؟ ستحبسني في الغرفة كما تفعل دائمًا؟ ستهز سمعي بشتائمك؟ ستثير غثياني بمنظرك؟ ماذا ستفعل أكثر مما فعلت؟ ما عدت تخيفني!

اتسعت عيناه والشرر يتطاير منهما بشكل مخيف:

- ستندمين!
- سأندم إن بقيت معك صدقني، سينهشني الندم إن تحملت سوء معشرك أكثر من هكذا، أريد الطلاق ومن صباح يوم غد !

لا أخفي دهشتي أنا أيضًا منها، رحت أراقبها بشئ من التوجس، خفت أن تنهار، أن يصيبها مكروه، لكن نظراتها كانت واثقة، قوية كما لم أرها من قبل، وانقلب زوجها على عقبيه خالي الوفاض إلا من أغلال العبودية التي رمتها سارة في وجهه، اتجهت إلى الأريكة وارتمت عليها كمن أنزلت حملًا ثقيلًا عنها وتنهدت تنهيدة الحرية !! نظرت إلي بامتنان:

- شكرًا.
- لكني لم أفعل شيئا!
- بلى، أنتِ من أيقظتني من سبوت عبوديتي.
- بل أنتِ من فعلت بقوتك، بعزيمتك حررت نفسك.

في داخل كل شخص منا قوة، جرأة، حماس، أو ربما موهبة، لا يكتشفها حتى يخرجها منهم الآخرون كاللؤلؤ المكنون، تستخرج القوة الكامنة في ذواتهم، بمجرد لمسها بكلمة! كلماتي لم توقض قوة سارة فحسب، بل أيقظت أحلامها أيضاً. قالت بحماس:

- أنا مجازة في اللغة العربية، كان حلمي ان أصبح أستاذة، لم يفت الأوان بعد صحيح؟

بابتسامة واثقة أجبتها:

- الأحلام لا ينقضي أجلها ما دامت في نفسك الرغبة، إفعليها...
- نعم سأفعلها، جاءت في الوقت المحدد، في هذا الشهر يدفعون الطلبات، سأتصل صباحًا بصديقة قديمة لي وأستفسرها عن المستلزمات.

قامت وقبلتني بفرح مباغت، وذهبت تتراقص بحرية إلى سريرها لتخلد لنوم هنييء افتقدته منذ سنوات.

وعدت أنا إليك، أخذت هاتفي، وجدت فيه رسالتين منك الأولى "افتقدتكِ " والثانية "افتقدتكِ جدًا" بعثرت قلبي كلماتك، ودق دقات متسارعة من الفرح، ودقات مثقلة بالحزن، كنت قد اشتقتكَ حقًا، أتفقد موضع السلسال، إنه ما زال نائمًا على نحري، أخذت القلب بين أناملي وقبلته بلهفة، تحدثنا طويلًا ليلتها، أتأمل صورك بينما تكتب لي، أطفيء بها اللهيب المستعر في ضلوعي لشوقك، حديثنا طوال تلك الفترة كان "اشتقتك" "أفتقدك" المحور الذي لا نمل منه قلت لك:

- أشتاق لك وأنا بقربك، فما بالك في بعدك، أحترق شوقًا، لملامسة أناملك.

قلت لي:

- لم أكن لأعلم بأن الشوق سينال مني إلى هذا الحد، أشعر وكأن قطعة اجتثت من صدري، أتوق لإسترجاعها واحتضانها بقوة، أن ألصقها بجسدي كي لا تضيع مني مجددًا، أنا ضائع بدونك.

اغرورقت عيناي بالدموع من فرط الشوق :

- سأعود إليك قريباً وسنطفيء لهيب الأشواق.

تطمأن شوقي لشوقك واستكان قليلًا، فما أجمل أن تشتاق لشخص يتشاقك هو أيضًا، رغم مرارة الإشتياق إلا أنه يخفف عنك الشقاء، ويشاطرك العذاب نفسه، يحلو العذاب حين تجد من يشعره به لأجل قلبك هو أيضًا، حينها تتيقن أن عذابك له معنى، وأنه لم يذهب سدًا، فليعن الله قلباً يشتاق لوحده، يتكبد شقاءه لوحده،

دون سند يشركه علة المشتاق وذل العشاق دون بصيص أمل في لقاء يذهب عن قلبه الوجع، لكنه رغم ذلك يشتاق ويحترق، لا يملك قوتًا يسد به جوعه، سوى خيبة تزيد الإشتياق مرارة، لا رسائل لا صور، بعض الذكريات المتآكلة، وأحلام غطاها غبار اليأس بعد زمن من الانتظار المميت، فيا شوق، إرحم من انقطع عنه صلة الأحباب.

*****

استيقظت في الصباح باكرًا تسابقت مع أشعة الشمس الأولى التي لامست السماء، وطاقة عجيبة تدفعني اليوم لأكتشف سحر الشروق ينافس سحر المدينة، فتحت الدولاب ووقعت يدي على فستان أزرق طويل كأنه قد اختار لنفسه لألبسه فارتديته دون تفكير، كان أزرقًا سماويًا بكمين قصيرين وحزام رقيق يبرز جمال الخصر، وارتديته مع حذاء رياضي أبيض من Adidas !

صففت شعري على شكل ذيل حصان وخرجت سعيًا للفحات نسيم بارد، الشوارع خالية إلا من بعض المارة، والدكاكين لا تزال مسكرة، أما المقاهي فلم ترتب طاولاتها بعد، وهذا ما يروق لي حقًا، ما زال الناس نيام، ولن يشاركني سحر الصباح الباكر إلا قلة قليلة مثلي! رحت أتمشى بجانب البحر، أشاكس أمواجه وأملأ رئتاي بهواه النقي، أقترب من رماله وأعانق سماء أحلامي، ما إن أقترب من البحر حتى يرتطم اليأس بالأمواج ويمتلئ قلبي أملًا حتى يفيض، لا زلت لا أدرك العلاقة بين البحر الأزرق والأحلام الوردية، وكأن البحر موطن الأحلام ومرساها، ما إن تجلس قبالة البحر حتى تغرق في الأحلام وتغرق، دون أن تموت حقًا، فالغرق في الأحلام حياة خلودٍ ونجاة من قساوة واقع تسكنه ولا يسكنك، تطفو بك الأحلام من العالم الملموس لتطير بك لعالمك المستور الذي لا يشاركك فيه كائن كان سوى خيالك، ذلك العالم الممزوج بالوردي والأزرق، عالم يعيش فيه القلب كما يريد النبض ومع من ينبض له وبه، وبعد ساعتين من الأحلام والأمواج وهواء يتراقص مع خصلات شعري هنا وهناك، أخذت رواية جلبتها معي لقراءتها في حضرة البحر، رواية "من وراء حجاب" صادفتني أول كلماته كرسالة موجهة لي من الكاتبة !

" الحقيقة خيال إن أنكرتها... والخيال حقيقة إن صدقته.." تهت بين معناها وضللت طريقي بين الخيال والحقيقة فآثرت الإيمان بالخيال وتصديقه، فالإيمان بالمحسوس يجعله ملموس، والإيمان بالخيال يجعله حقيقة، فسمحت لخيالي تصديق أحلامه والعيش من قوتها، فلم تحملني أجنحة الخيال إلا لعش ذلك "الأنيس" وتركت قلبي بين حلم وحب ! ودعت البحر والأحلام لأعطي للواقع حقه، ثم ارتدت المقهى الذي ألفته في هذه المدينة، له جلسة كلاسيكية وطابق في الأعلى يطل على جانب البحر، أخذت مقعدي في الزاوية وطلبت الفطور وقهوتي الصباحية، وأخذت أتصفح حسابي على الفايسبوك حتى حين يقدموا لي فطوري، وكتبت منشورا صباحيا :

" صباح الهدوء المفعم بلفحات أحلام وردية.. صباح الأزرق وصدق الأزرق.. الأزرق الطبيعي، زرقة السماء والبحر بصفائها ونقاءها .. لا زرقة العالم الزائف والكاذب..."

وأول "إعجاب" أزرق صادق كان من أنيس الفؤاد.

تحملك أمواج الخيال

لذاكرتي..

لتحرك نبضات قلبي المجنونة..

في مد وجزر

وترتطم صورتك

بميناء قلبي بلهفة..

ليهمس القلب في آذانك :

أن ادخله آمنا..

ولك فيه ما سألت من حب !

أنهيت جولتي الصباحية وعرجت بين الدروب لأعود للمنزل، كانت الساعات التي قضيتها رفقة البحر وحديثي الصباحي مع أنيسي كافية لتجعل الفرح يهتدي إلى ملامحي وتشرق شفتاي بابتسامة تفاؤل، تبددت كل مشاعر السعادة الطاغية لما بدأت بالإقتراب من امرأة عجوز تجلس باب منزلها المفتوح، ركزت بنظرات غريبة، مخيفة من عيناها الزرقاويتين علي!

مررت بجانبها وألقيت عليها السلام وقد توجست منها خيفة، جاءني صوتها " اقتربي مني يا ابنتي ولا تخافي" تقدمت بضع خطوات مترددة، ابتسمت لي ابتسامة بائسة وعيناها لا زالت مرتكزتان علي، وقالت ما تلقيته كالصفعات، كلمات أصابتني في مقتل :" عيناكِ المشعتان أملًا سيخبت بريقها، روحكِ المتراقصة فرحًا ستترنح وجعًا" فاهت شفتايَ دهشة وهربت الكلمات، لم أسألها عن تفسير ولم تعقب ! لم أجد نفسي إلا أنني أمضي في عجل لأتوارى عن نظراتها، دائمًا ما يصدق قلبي ما يقوله العجائز، لأنهم في إيماني صادقين، كأن لهم جني يخبرهم بالخبايا التي لا ندركها نحن !

وصلت إلى المنزل وما إن رأيت أمي حتى ارتميت في صدرها كعصفور صغير يخشى الطيران، احتضنتها بكل مخاوفي واضطرابي المفاجيء ولم أخطيء الملجأ، فصدر الأم دواء لكل داء، مسكن ألم، ململم الشتات، مهديء القلق، أخذت أمي وجهي بين يديها تدقق فيه، باغتتها بقبلة على خدها، وبابتسامة همست لها " صباح الخير يا كل الخير" وانفلت من يدها كأنني تذكرت شيئا ودخلت الغرفة هربًا من إحساس أم صادق، لا يصمد كذب أمام جدار صدقه، مضى بقية اليوم سوداوي قاتم، كئيب وقد عربدَت كلمات العجوز سماء مهجتي، كيف لكلمات أن تنزع عنا قناع الفرح وتلبسنا البؤس، وأنا أتأثر بالكلمات كثيرًا، ربما لأنني أشعر أكثر مما ينبغي، هناك كلمات تقذفنا بحمم وجع، وكلمات تفتك بنا، تنخر كياننا حتى تحدث به تشوه يلازمنا حتى حين، تغتدر الكلمات مسامعنا، يسكننا وجعها إلى أرذل الألم، كيف لا؟ والقتل بالكلام مباح!

أخرجت نفسي من أفق السوداوية في مساء ذلك اليوم بجمع أغراضي فغدًا سنعود إلى طنجة، إلى مدينتي أخيرًا، إلى مسكننا وإلى مسكني الصغير، إلى دفيء عيناه!

كم اشتقت لتأمل بريق عيناه! عيناكَ موطني.. عيناكَ سكني.. وأنا المغتربة في بُعدِ عيناكَ.

خطرت ببالي فكرة أثناء استغراقي في التفكير فيه، سأكتب له رسالة ورقية في زمن الحماقات الإلكترونية ! أخذت ورقة عذراء وقلما أسودًا، وبدأت أكتب على الورق حروف شوق مجنونة كجنون صاحبة القلم والقلب.

ها هي ذي الورقة بدت متعطشة لكلمات تروي بها ظمأ الفراغ الذي يكسوها.

ها هو ذا القلم تائه بين جمال عيناكَ و جنون عشقكَ، عاجز عن انتقاء الكلمات التي سيكتبك بها بجرة حب.

ها هو ذا القلب حائر فيما سيحكيه للقلم عنك، فالقلم لا يكتب سوى حكايا وخبايا القلب، أسيحكي له عن حب يتنفس به و ينبض له؟ أم عن قلب قريب منه، إلى أقرب حد، أبعد مما يتوقع أحد..؟ أم سيحكي له كيف عبرت الذاكرة برائحة عطر؟ أم كيف سلك الشوق طريق القلب واستقر في نافذة الروح؟

ها هي ذي الحروف تنساب من القلم بشهوة حب حبري لتخلد على السطور.

تعود بي ذاكرة القلم إلى هاهناك إلى لقاء العيون الأول. وتؤرخها ها هنا، على ذات الورقة العذراء التي لا يغريها إلا حروف كتبت لكَ، كأنها خلقت لتحمل سطوراً منك..!

تسابقت الحروف على السطور وأخذت مكانًا لها في الورقة على عجل كأنها تخشى أن يخلص الحبر قبل أن تفرغ من حجز سطور لكلماتها، فطويتها على مهل بعد أن رششتها بعطري وحفظتها بين أحضان رواية، بعد أن حفظتها في قلبي.

ها أنا أعود إليك وكل الأشواق تؤدي إلى قلبك، كل المدن أنت بسماءها وبحرها بحرائقها المفتعلة، بنيرانها الملتهبة، بشمسها وقمرها، بحرها وبردها، كل المدن أنت بحاضرها وماضيها وبكل ذاكرتها، أنت مدينتي المقدرة، فهل من منفى يأسرني عن قدري؟

وجاءت ساعة لقاءنا بتوقيت الشوق، وقفت أمام دولابي كثيراً، حائرة في اختيار ما سأرتديه، حيث بدت لكل قطعة ثياب ألسن تتوسل بها أن أرتديها، كل ثوب متلهف لعناق عطرك، والألوان تتراقص أمامي لتشكل قوس فرح للقياك، استقر اختياري أخيراً على سروال جينز أزرق وقميص بنفسجي بكمين قصيرين، ورشات عطر من شانيل ووضعت القليل من أحمر شفاه وردي وماسكارا، وسلكت طريق المقهى المعتاد، مقهانا الذي يكتم سر تورطنا العشقي، هناك أماكن تظل عابرة نمرها على عجل دون أن تستوقف أنظارنا إليها أو تربك النبض فينا، وهنالك أماكن أخرى نمرها على مهل نقف إليها كما نقف على الأضرحة لنتبرك برائحة ذكرى جمعنا فيها المكان، وكان شاهدًا عليها ومباركًا لها، ليسكننا ذات المكان كطرف ثالث للذكرى ويستوقفنا كل مرة بتذكرة مجانية لاستحضار ذكرى منسية، صدفة منسية أو لقاء منسي أو حب منسي من شريط الذكريات الغابرة.

وها أنت هناك، أخيراً، جالساً على كرسي حنين، عاقدًا يديك على الطاولة أمامك في كبرياء عنيد، ترتدي قميصًا أسودًا يليق بسمارك، وجينز رمادي، ونظراتك تنتقل هنا وهناك بلا مبالاة .

وها أنا هنا، لم تلحظ وجودي بعد، حينما كنت غارقة في تأملك بذات الإنبهار الأول، أكتشف ملامحك كأنني أفعلها للمرة الأولى،أو كأنها ما نقشت على جدار قلبي.

جئت إليك لأنك بداية العشق ب "ع" عنفوانه، و "ش" شوقه، و "ق" قدره، وفيك قد اجتمعت بداية كل المشاعر وانتهى كل عشق بعدك عند أعتاب قلبك، وتولى مدحورًا، تركت لك طريق القلب مفتوحًا بعد أن قطعت لك تذكرة حب ذهابًا دون إياب، كأني أيقنت أنك رحلة حب لا رجوع منها، أم أن قلبي هو الذي ذهب ولم يعد؟ اقتربت منك من الخلف ولمست ظهرك بحركة خفيفة لتستدير إلي في ذهول، وابتسمت لي ابتسامتك في وسط ذهولك واندهاشي، وسط شوقك المستور وشوقي المفضوح ! أمسكت بكفي المرتجفة وسط دمعة شوق فرت من عيني لتسحب مني الستار الذي أخفيت خلفه شوقي، فرت من عيني لتلقى حتفها على يدك حين مررت أصابعك على خدي ومسحتها لألتقط كفك الدافئة وأحتضنها وسط راحة يدي، كنت

قريباً مني، اخترقت وجهي بنظرات نارية كأنك تبحث فيه عن شئ أضعته بين قسماته، تركزت عيناك على شفتاي تعمقت في النظر فيهما حتى انفجرت براكين خجل في وجهي وامتقع، وأذهبت عن عقلي رشده وجنونه، أحنيت رأسي على استحياء لتتدارك جنون الموقف، ثم تتذكر أخيراً أننا في مقهى وأن الجالسين هنا يسمرون نظرات فضولهم علينا! كأنه لا يوجد في المكان سوانا نحن والشوق ثالثنا، ضحكنا بعد لحظات صمت متوتر لحرج الموقف الذي أوقعنا الشوق فيه ، سألتني سؤالًا تعرف إجابته مسبقا:

- هل اشتقتِ لي؟

هززت رأسي نفياً :

- لا أبدًا

تعلم بأنني أكذب وتعلم أنني اشتقتك.

رفعت حاجبك في استنكار:

- هل أنتِ مُتأكدة؟!

بنفس النبرة الواثقة -المزعومة- قلت لك :

- لا .

قلت بعد أن غمزت لي بخبث:

- أمرك مكشوف يا صاحبة الشوق المفضوح .

نظرت إلى عيناي مباشرة وأطلت النظر دون أن ترمش ونطقت شفتاك :

عيناكِ أرض لا تخون.

عيناكِ إيمان وشك حائر

عيناكِ نهر من جنون

عيناكِ أزمان وعمر

ليس مثل الناس شيئًا من سراب .

سألتك بشك حائر:

- تحفظ شعر فاروق جويدة؟! ولكن أنت لا تحب الشعر!

أجبت وأنت تعدل في جلستك الواثقة:

- حفظته وأحببته من أجل عيناكِ.

وأنا من أجل عيناك أحببت ربيع عمري، وقدست الرمادي المسكوب في عيناك، من أجل عيناكَ اعتنقت الجنون وكفرت بالمنطق، أفرغت ذاكرتي وملأتها بك وحدك، من أجل عيناك كتبت، تذكرت الرسالة التي كتبتها لك فدسستها في جيبك على حين غفلة منك، أمضينا مع بعض وقتًا أطول من أي لقاء مضى، فالعمر في لقياك يحتاج عمرًا آخراً حتى يسقي بالمطر عطش القلب، ويزهر ربيع الروح، وتشرق شمس الفرح، وتتساقط أوراق خريف الشوق.

سألتك:

- أخبرني ماذا فعلت في بُعدي؟
- استحضرتك
- كيف؟ أأصبحت مشعوذا؟
- كلا، جوريتي رسمتك .

فاهت شفتاي عن دهشة :

- مفاجآتك اليوم لا تنتهي! منذ متى ترسم؟

- منذ أن أحببتكِ .
- أتعني أنني ملهمتك؟

لكل منا طاقة ما في داخله، لكنها كنز مدفون قد نكتشفها مع الزمن أو تظل سرًا مدفونًا حتى يرحل معنا، نحن لا نكتشف قدراتنا وطاقتنا حتى نسقط أو نتعثر، من حظي أن تعثري كان الوقوع في حبك لتفجري داخلي براكين الإلهام يا تعثري الجميل.

أجيبك بتغنج:

- اممم .. إذن متى ستريني لوحتي يا دافنشي؟

تضحك:

- متى ما شئتِ.

ما أجمل لقياكَ.. ما أجمل الحديث إليكَ.. ما أشهى تفاصيلكَ.. ما أسعد قلبي بكَ.. ما أشقاني في بعدكَ..

أحيانا أشرد في التفكير فيم قد فعله حبك فيّ يا سيدي! أجدني من فرط ذهولي أعجب من حالي ! ما كل هذا التغيير الذي لحق بي! حبك قلب موازين قلبي، جردني من عقلي، جنني، شردني، أربكني، أشعلني أحدث فوضى في حواسي، هز مكنوناتي.

أدمنتكَ سيدي..

كسكير أدمن كأس خمرته..

لذيذ هو إدمانك..

يشعلني.. لكنه لا يحرقني.

يسهرني.. لكنه لا يتعبني.

من السعادة يدنيني ويدنيني.

ومن الشقاء يقصيني.

إدمان هو عشقك.

يسكنني ولا يفارقني.

طلبتني على الهاتف بعد يومان من لقاءنا في الصباح، انتشلتني من سكرة نومي لتغرقني في سكرة عشقية مع صوتك الناعس، كلحن ناي، كموسيقى عذبة، فلتنفني أغاني فيروز تحت وطأة صوتك:

- صباحكِ جوري كأنتِ .

أجبتك بصوت شبه نائم وقلب كله هائم :

- صباحكَ أنيس كأنتَ.. لقد أيقظتني .
- ألا تزالين نائمة؟
- نعم لا محاضرات لدي هذا الصباح.
- أعتذر، كنت أنوي أن أعطيك لوحتك.

قفزت من السرير حتى سقط مني الهاتف، ثم التقطته من جديد وصحت بحماسة:

!! yes, yes I will be there after one hour

قلت ضاحكًا :

Crazy Girl

نهضت أبحث عن ملابسي، ارتديتها وتركت وجهي بمسحته الطبيعية وحمرة وجنتاي التي تضعها لي أشعة الشمس الخبيرة كل صباح، دخلت للشرفة سقيت ورودي، أخبرتها أنني ذاهبة لإحضار اللوحة ولن أتأخر !

سبقتك إلى هناك ووقفت أنتظرك، ألعب بأناملي، توتر كأني سأراك للمرة الأولى، ألتفت يمنة ويسرة من حين لآخر علني ألمحك، حتى سمعت أزيز سيارتك السوداء، فتحت لي باب السيارة لأجلس بجوار كبريائك وعلبة سجائرك، مددت يدك دون أن تتحدث إلى الكرسي الخلفي وحملت اللوحة ، كانت مغلفة بغلاف أسود، ووردة جورية ذابلة ملصقة على الغلاف بشريط ذهبي ! نسيت لهفتي لرؤية اللوحة وركزت دهشتي على الوردة الذابلة، سألتك باحتيار:

- ولماذا الوردة الذابلة؟

أخذت تمرر أصابعك على وجهي متجاهلا دهشتي واشتعال وجهي، أعدت السؤال بصيغة أخرى:

- أتعذر عليك الحصول على ورد متفتح؟

أبعدت نظرك عني ورحت تطالع النافذة بعد أن أشعلت سيجارة من حرائقي:

- هناك ربيع لا يزهر.

تركت جملتك هكذا "هناك ربيع لا يزهر" معلقة في أفق الغموض، معربدة.

يومها لم أهتم لما قلته، ربما لأن كلامك أحيانا يكون غامضًا، لكن ليس أكثر غموضا منك ! تركت قولك يعبر كما نفعل دائمًا حين نصم آذاننا عن كل إشارة تُرسل لنا دون أن نعلم في وقتها حقا أنها رسالة لنا، نتركها تكر عابرة حتى يصيبنا من الخيبة ما قدر لنا من عذاب، لتمر من جانبنا تلك الإشارة تسخر من جراحنا وتتشفى من حالنا، كأننا بالغيب كنا عالمين!

أخذت اللوحة أفتحها على عجل أتسابق مع حماسي من سيراها الأول؟ أخذت أتأملها وهي بين يدي غير مصدقة . رائعة كانت حد الإنبهار، بألوانها وشكلها، أتقن رسم ملامحي، إذ ركز على رسم وجهي، عيناي العسليتان باتساعهما الحقيقي، خدودي المرتفعة بلونها الوردي، شفتاي المكتنزتان، وشعري الكستنائي الطويل.

- أأعجبتكِ؟
- ماذا تقول؟ لم تعجبني فقط جننتني، مدهشة، أنت تحترف الرسم حقا !
- كلا، أنا أحترف حبك لا غير.

وآاه من احترافكَ يا مراوغ ! تحترف في حبي وتتفنن في أسري داخل أسوار حبك، لا تحتاج فرشاة لتبهرني ولأحبك. حبك كان فرشاة لونت لوحة حياتي العذراء الفارغة من كل حياة، بأجمل حياة، وقد ملأتني بك وتملكني حبك.

فماذا ينقص عمري سوى عمر معك، وعمر آخر بجوارك، وعمر تعويضًا عن خسارة عمر قضيته بعيدًا عن عمرك دون أن تعمر قلبي، والعمر بعدك مستحيل كما أن العشق قبلك مستحيل.

زارتني ريم في ذلك المساء، كم أهملها وكم تتمسك هي بي! سعدت لرؤيتها كثيراً وخجلت من تقصيري معها أكثر، تمد جسر الصداقة بيننا غير مبالية لمن يصل أكثر أو من يهتم أكثر، وغالبا ما تكون ال" أكثر" من نصيبها، تصلني لأنها تعرف بأن ودها خفيف على قلبي كخفة روحها، فنحن في الأخير لا نتمسك إلا بمن نشعر بأن اهتمامنا لا يثقل عليهم، وكتعويض عن أيام غيابي خرجت برفقتها لساعات من التسوق المتعب، تدخل من محل لآخر ولآخر، ثم تعيد الزيارة مرة أخرى كأنها لم تدخله قبل نصف ساعة !!

حتى سكنني الضجر، هلكت من كثرة التسوق حتى ما عدت أقوى على المشي، فجلست على أحد المقاعد أحتج لترحمني. وقفت تنظر إلي باستنكار ووضعت يدها على خاصرتها ثم تضحك، أخيراً تشدني من يدي بجنون وتدخلني لأقرب مقهى. بدأت في أسئلتها المخابرتية الأنثوية وفضولها النسائي، وإذا وقعت في قبضة امرأة كهذه فإنها لن تطلق سراحك حتى تسحب منك أجوبة مهدئة لفضولها، لا شافية فالفضول لا شفاء منه.

تسألني بمكر:

- هل أنت سعيدة معه؟

تنهدت:

- تعيسة أنا بدونه .

تضرب كفًا بكف:

- قولي أنك أحببته وكفى؟

أضحك على كلامها وكأنها لا تعلم كما أعلم الجواب منذ ما يقارب السنتان أو يزيد .

أحببته لا تكفي، تورطت في عشقه، قربه يفقدني اتزاني ،يربك نبضي، أشعر به وكأنه قابع داخلي، بين روحي وقلبي، اتخذ له مسكن، حين أكون معه لا أشعر أنه بقربي فقط بل بقلبي بداخلي، أتفهمين يا "هبلة"

تقول بعد لحظات تفكير:

- دوختيني !

وننفجر ضاحكتين.

مازلت أذكر ذلك اليوم منذ انجرافنا العشقي دون توقف إلى ذلك اليوم بعد سنتين من اتقاد العشاق وبعثرة الأشواق، ومن مشاعر تكفي لعمر كامل من الغرق الشهي، حين بدأت أيدي العبث تطول طرف حكايتنا وتشدها إليها بنية التلاعب بها، حين بدأ برودك يطفو على نار الحب، حين جاءت عواصف برودك دون إنذار مسبق من نشرة العشاق، ما زلت أذكر تلك النقطة السوداء التي بدأ منها التغيير الجذري لحب محتوم، مطلق..!

لا شئ تغير في معاملتي لك، إهتمامي بك، إحتوائي لك، لكن شئ ما بداخلك بدأ يتغير، ربما شمعة الحب بدأت تخبو! المصيبة أن لا أحد يتغير ضربة واحدة، الكل يختار الطريقة الأصعب، الأقسى، يتغيرون شيئًا فشيئًا ليحدثوا في داخلك أكبر قدر

من الفوضى، وليلحقوا بك أعظم دمار، بين كل حين وحين آخر يسحبون شيئًا منهم كي لا تلحظه، وهم لا يعلمون أن القلب بكل تغيير عليم، وبين ذلك الحين والآخر حرائق ونيران، براكين شك وفياضين ضياع، بين كل تغير وتغير نفقد شيئًا منهم وشيئًا منا ونتشظى.

سهرت على الفيسبوك كعادتنا الليلية لساعات من أحاديث مجنونة، مضحكة، وكم كنت أدمنت حديثك! أحاول أن أستبقيك لأطول مدة، لأملأني بك وأرتوي، ولكنني لا أرتوي، أزداد ظمأ لكل رسالة تشعلني، تدوخني، ما ارتوى ظمأي لقربك وتعطشي لحديثك يوما! انتظرت رسالة منك تضيء ليل قلبي، تثلج اشتعالي، لكنك لم تفعل تلك الليلة، ولن تفعل في الغد لم تكلمني، سهرتَ حتى الثانية صباحًا ولم تحرك صندوق الرسائل ! وتركتني لافتعال غضب شل جهازي العصبي، رميت بالهاتف على الأرض ونمت، أو أنني لم أنم من كثرة الهواجس.

مضى يومان وثلاث في صمتك المخيف، ولأول مرة أخشى صمتك، وما تخفيه سراديب الصمت المظلمة، أخذت هاتفي لأرسلك لك رسالة في اليوم الرابع بعد أن تسرب القلق إلى ربوع قلبي، خشيت أن يكون قد أصابك مكروه ما أو مرض

أرسلت لك : " أنيس، كيف حالك؟!"

لتجيب بعد دقائق طويلة: "الحمد لله، وأنتِ؟"

ردت : "بخير، أين غبتَ هذه الأيام"

جاءني ردك باردًا، مقتضبا في كلمة واحدة: "مشغول"

مشغول ؟! كدت أن أصرخ في وجهك " بماذا مشغول؟

ببرودك أم بإهمالك ؟ أم مشغول بتغيرك؟ بماذا مشغول !"

وهكذا الأيام التي تلتها باردة بالغياب، برود يتعقبه برود، وإهمال يقلبه إهمال، أصبحت لا تطلبني على الهاتف ولا ترسل لي حتى أبادر أنا! أتقنت الغياب كما

أتقنت تعذيبي وتفننت فيه، في البداية ظننتك غاضبًا مني لأنك عندما تغضب مني تعاقبني بالصمت المميت، رحت أسترجع كلامي، تصرفاتي معك، كل شئ، فلا أجد أن خلل في أيامنا الأخيرة الجميلة كان فيها شيء من حلو البدايات وبراءتها، لكن ما الذي غيرك عني؟ أصبحت متقلبة المزاج في فترتها، وآلاف الأسئلة تدور في دماغي بخبث وتتلاعب بي ولا أجد لها أجوبة، أمطرت سمائي كئابة، حتى بت لا أفارق زاوية غرفتي المظلمة، لقنتني درسًا مميتًا في الغياب، باتت ملامحي ذابلة والنوم فارق مقلتي، أراقب نشاطاتك على الفيس والواتساب، غالبًا ما تكون متصلا، لكنك هناك- بارد- لكنني هنا أحترق، لكنك لا تبالي، لكي أتمزق إلى أشلاء متناثرة، أتقنت الغياب، واحترفت الإنتظار، يقلبني الشك على النار ذات اليمين وذات الشمال، تشتتني الغيرة إلى مئات شظايا وشظايا، فكرة شيطانية تراودني بأنك لم تعد تحبني، وأخرى توسوس لي بوجود امرأة أخرى في حياتك !! وكلا الفكرتين تطردانني من دائرة الصواب وتزجني في زنزانة الحزن، سألتك ذات حيرة وشك:

- أأنت غاضب مني؟
- لا، ولم قد أغضب منكِ؟
- لم تعد كما كنت، تغيرت كثيراً، لم تعد تكلمني كثيراً ولا تحدثني بتلك اللهفة، ما الذي تغير؟!
- لا شيء من هذا، ضغط العمل فقط.
- وكأنك من قبل لم تكن تعمل .

قرأت الرسالة ولم تترك لي سوى صمت يؤكد شكوكي !

فأرسل لك بعصبية:

_ إن لم تعد تحبني فقلها، قلها فقط وسننهي كل شئ.

_ لاتقولي هذا مجدداً، تصبحين على خير.

لم يزدني كلامك إلا حنقًا عليك وغضبًا، كأنك أضرمت النار في قلبي، أخذت أرمي بعصبية كل شئ من حولي، حتى لوحتك التي أهديتني إياها، وغرقت في نحيب طويل حتى تعالت شهقاتي قهرًا، ما كان يلوح لي من وسط ظلامي هو شبح الفراق، أكثر ما أمقته في تقلبات الحب، حينها أدركت فداحة مايحصل- إننا نهوي نحو الفراق- وفداحة ما حصل أنني قد ارتكبت أجن حماقاتي حين انجرفت في حبك حد التطرف دون موازنة، حد الغرق دون مقاومة، وقد كان الغرق فيك نجاة وحياة لذيذة، حتى أنني جردت نفسي من سعادتي، قلبي، روحي، وعلقتها على باب حبك، وما قد يحصل أنني قد نسيت بأن الباب قد يوصد في وجهي يومًا ما، ويصفعني بغياب لعين، تلاحقني كوابسه حتى في نومي، وتسحب مني غطاء الراحة، لم أترك مني لنفسي جزءًا يلملمني إذا ما لحق بي خراب الفراق! لم أحتفظ لنفسي بشئ أستر به وجعي عن أعين الناس الناهشة، كمن يداري سوءته، فوجعك عورة لا يحل لك أن تكشفه لأحد أيا كان، في الأول سيتستر عليك بكلمات لا تسمن ولا تغني من سترة، وحين تمنحه الأيام فرصة سيعري وجعك ويخذشه.

كسرت صمتك ذات يوم بعد أن تعب الإنتظار من الإنتظار برسالة : " كيف حالكِ"

وكيف يكون الحال في الغياب؟ ليالي طويلة معربدة لا صباحات بعدها، تتخبط في ظلام الغياب دون أن تلمس موضعك من قلب غائبك، تُنْفى من الحياة بعد أن يُسرَق منك كل شيء ويستنزفَ قلبك، تظل على الهامش نسيًا منسيًا، بربك عن أي حال، يُسأل عنه المنفي والمغترب وقد سلب منه حاله وأحواله عند حدود الغياب، المغيّب، المطرود، الشريد، لا حال له ولا أحوال، لا حول له ولا قوة، فسلام على المنفيين من بقاع الحب جميعًا.

رغم مرارات الغياب الساحقة كنت أصبر قلبي بأنك ستعود لحالكَ يومًا وتعيد لي حالي! والغريب في الغياب أن القلب يزداد تعلقًا وحبًا بغائبك الجبار، وكأنه يتحكم به عن بعد بجهاز الشوق، وكم من أشواق شردتني، وأشواق أطعمتني أصناف العذابات، وأخرى أبكتني ومزقتني.

للحديث معكَ أشواق مكبلة، للضحك معك ضنين حنين صامت، لسماع صوتك شوق مخروس، لرؤية عيناك أشواق أفاضت القلب بوجع نازف.

وكما اخترتَ لنفسك الغياب، اخترتُ لنفسي الصمت، وكبرياء يخرس الوجع والإحتياج، ويطبق عليه بالصمت المكرم، الوجع لا يظهر لك لأنه مخفي خلف ستار الكبرياء، للوجع كبرياء أيضًا، يختفي خلفه كي لا تلاحقه نظرات الشفقة!

تركتك لغيابك وتبريراتك الكاذبة، وتركتني لعذاب لا خلاص منه إلا عودتك.

وها أنت تعود كما كنت دون سابق إنذار بالفرح أو بالفرج! عدت وعادت إليّ سعادتي كعدوى تلقيتها من رسالتك، حاولت أن لا أجيبك وأقاطعك حتى أستعيد حق كبريائي، ثم غلبني شوقي وأجبتك بكلمات مقتضبة حتى تراضيني، ثم جرفني كلامك في دوامة عشقية، كانت شهيتي نهمة لإلتهام حديثك وكلامك بعد أيام وأيام من الجوع، عادت الحياة تسري في عروقي بسريان عشقي لذيذ، وعدت أسمع نبضات قلبي من جديد، لامست وجهي لأجده أزهر واشتعل عشقًا وسعادة.

تجاوزت عن معاتبتك على الغياب وانشغالك الطويل عني، وكانت هذه هزيمتي الأولى معك، وأمام حضورك الذي يرج قلبي لأدرك ضآلة حجم صمودي أمام حبك الكبير، تجاوزت عن كل شيء مقابل ضمان وجودك معي، لأنني أحبك، لأن قلبك وحده من فض غشاء قلبي، لأن أناملك وحدك من أشعلت خدي العذري، لأنك أنت العمر الوحيد الذي عشته، والحضن الوحيد الذي سكنته، لك الحب كله أوله وآخره، لك القلب ونبضه، لك عمر لم يعد من بعدك عمر، لك روح خاوية إلا منك، ولأنه ليس لي بعدك سوى أنين الحنين، وليالي الغياب الباردة، ولي أنا، و يا ويحي أنا في غيابك، لي كل الفوضى والبعثرات، لي الضياع والشتات، لي كل الوجع والدمار.

عدنا لتورطنا العشقي إياه بطقوسه الجنونية إياها، قلت لي لن نلتقي هذه المرة في نفس المقهى، طلبت أن نغير المكان، انصعت لكلامك راضية، لكن لم تقل لي أين! قلت:

- سأنتظرك بعد ساعة، ساعة لا أكثر، إن مررت ولم أجدكِ "مانعقالشي عليك" (بالدارجة المغربية ومعناها لن أتذكرك لكنها تستعمل عادة في المواعيد بمعنى آخر "لن أنتظرك")

أخذت قميص أسود مكتوب عليه بخطوط بيضاء عريضة "Dream it. Do it"، وسروال جينز أسود .

وحذاء رياضي في الأسود والأبيض، رسمت خط آيلاينر على عجل وأحمر شفاه، وقفت أمام المرآة أخفي سواد الهالات الذي لون به الغياب عيناي، وضعت اللمسات الأخيرة والتقطت هاتفي وجئتك، يحملني بساط الأشواق إليك ورياح حب قوية تعصف بي نحوك، وكل المتاهات والإنحدارات تقودني بجنون إليك، وبالصدفة اكتشفنا أن كلانا يرتدي الأسود كأننا على اتفاق مسبق ! تصافحنا وبتصافحنا كنا قد وقعنا عقد سلام مع الحب وعدنا لهدنتنا، أراك تغتاب الشوق من عيني بين نظرة وأخرى، بين حين تنظر إلي وحين تتأملني للحظات وتقود بيد واحدة، أقول لك في خجل :

- انتبه أمامك !

فتبتسم لي وتقول لي كلامًا دون أن تتحدث حقا، تبادلنا أحاديث قصيرة، عفوية، نضحك حينًا ونصمت في وقت آخر، ولفرحة اللقاء أجنحة تغطي كل الكلام.

أدرت جهاز الموسيقى وشغلت أغنية "Céline Dion"

ولكم لامست أعماقي ونغمتني بصوتها، أدخلتني بدفيء إحساسها لعالم آخر، عالم تتوحد فيه الحواس مع الألحان. بدت وكأنها تغنيها لنا، أو كأنك اخترتها عمدًا لتسمعني إياها، هذه عادتك الماكرة، تخبرني بكلمات الأغاني ما يعجز كبرياءك عن البوح به، أدري أنها طريقتك في التعبير دون أن تقولها حقًا، وتدري حقًا أنني أفهم قصدك دون أن تتنازل عن كبرياءك الغريب هذا، فلتهنأ بكبرياءك العنيد هذا!

How does a moment last for ever

How can a story never die

It is love we must hold onto

Never easy, but we try

Sometimes our happiness is captured

Somehow, our time and place stand still

Love lives on inside our hearts and always will

كنت لحظتها قد أوقفت السيارة وشبكت يمناك بيسراي كما تفعل دائمًا، كما أحب أنا أيضا أن تفعلها دون أن أخبرك حتمًا. لكنني أخبرك بها حقًا حين أشد بيمناي على يمناك المشتبكة بيدي وأضغط عليها، ترفع إصبعك وتمرره بحركة بطيئة بين حاجبي وتربك عروقي.

كيف تعلمت إرباكي لدرجة تجعله فاضحًا؟ من أين تأتي بكل هذه القوة وترجني رجًا، تجعل عالي قلبي أسفله؟ ومن أين سآتي أنا بقوة تصمد أمام حرائق حبك؟

إرتجلتَ من السيارة، فتحت لي الباب وأخذتني من يدي، وقد أنساني إرباكي أين أنا! وجدتنا أمام مغارة "هرقل" الأسطورية التي يعود تاريخها ل ٢٥٠٠سنة قبل الميلاد أو يزيد، حيث كانت المغارة مسكنا وملاذا لملك الروم العظيم "هرقل" وسُميَت منذ ذلك الحين على اسمه، كانت مضجة بالسياح من كل مكان يتوافدون لزيارتها منذ أن تم اكتشافها في ١٩٠٦، أمسكت بيدي ودخلنا للكهف العميق وقد تم إنارته ببعض المصابيح الأرضية لتظهر سراديبه ونحوتها المنحوتة طبيعيًا، حالما تدخله يلفك الغموض من كل جانب، وكل صخرة من صخوره وكل نحت من نحوته يدعوك لتأمل عميق يليق بعظمة المكان، خاصة تلك اللوحة الغريبة على شكل خارطة افريقيا، جاءت كنافذة تطل على البحر والأجمل أن ألوانها تتغير في كل وقت حسب لون أمواج البحر، شروق الشمس وغروبها، أن بسحرها إلى زمن بعيد غير زمانك، وقفتَ أمام نحتها تتأملها، ولأن الزمن كان غروبًا فقد كان منظرها أخاذًا مع أمواج البحر

الهائج، لكن سحرك كان الغالب على قلبي، خلبني، أصابني في مقتل، غطى غموضك على غموض المغارة، تناسيت عظمة المكان وانشغلت بك واستغرقت في تأملك، في حين كنت أنت تتأمل ذلك النحت على الصخرة وسألتني كيف تم نحت خارطة على صخرة بكل هذه الدقة ؟ لم أجبكَ فقط وقفت أتأملك أنت، ثم تسألني "ما بكِ؟" لا شئ فقط أتأملك أنت، لأنك أنت ولا أحد كـ أنت، لأنك عالق في داخلي، متغلغل في شرايين قلبي، ولأن الحب يفلح حيث أتى! كل ما يحدث لك أشعر به، حتى وإن عني أخفيت، أشعر بك دون أن أراك من كلماتك فقط، وتعجب من أمري حين أعلم بشعورك دون أ ن تخبرني به، لأنني مرآتك، ولأنك قطعة منى، وحين يتغير فيك شيئًا يهتز كياني وتتشوه صورته، لذا أخشى تغيرك كثيرًا.

ظننت بعد لقاءنا هذا أنك عدت كما كنت، أنيسًا لقلبي، وأنْس وحدتي، كما عهدتكَ وعاهدتني في ذات سكرة عشق، لكن أنسك زال، سار نحو الزوال بعد أسبوع من لقاءنا لتبدأ لعبة الغياب من جديد، غيابات كعود ثقاب تشعلني احتراقًا وغضبًا، من علمك تفاهات الغياب هاته؟ من علمك اللعب بنيران قلبي؟ أو بالأحرى من علمَتكَ؟

هكذا أخبرني إحساسي، وكم يصدق إحساسي في تنبؤاته دائمًا، ولأول مرة أتمنى لو يكذب إحساسي، أهرع إلى محادثاتك، أبحث بين كلماتها عن دليل أدين بها كذب إحساسي، كم أرغب في تكذيب نفسي لأصدقك، لكني لا أجد سوى كلمات عادية.. باردة.. موحشة.

فأشعر بوخز بقلبي، منذ متى أصبحت غريبة عنك بعد أن كنت سكنك وملجأك؟ تسربت الغيرة إليّ وآآاه من نهش الغيرة، يدمي، يعمي، يغيب الرشد، ويفضي الصبر، ويهين أنوثتي ويئدها !! ولا شئ أكثر وجعًا للمرأة من غيرة مست قلبها. أعمت الغيرة بصيرتي حتى صارت عصبيتي لا تطاق، وكل شئ حال في نظري لونًا واحدًا، حال سوادًا، دخلت الغيرة لقلبي كمن يدخل منجمًا وبدأت تحفر فيه وتحفر ومع كل ضربة من ضرباتها يعتصر قلبي وجعًا وحرق، ألتف في سوادي الذي ما عدت أرى سواه في عالمي بعد أن أعلنت سخطي عليك وعلى الحياة.

أمسك بيدي على قلبي خشية أن يخرج من مكانه أشلاءَا ممزقة، أبكي بكاء قهر، ظلم، يتم، مرارة وفقد، أبكي بكاء العالم أجمع، وأنت جالس هناك على الطرف الآخر على كرسي من جليد تشهد فداحة ما يذوقه قلبي من ويلات دون أن تهون عليه وكأنك ليست من تسببت في كل هذه الفجيعة، أصبحت كغريب، غريب لا يعنيه أمر قلبي، تغيرت وتغير معك حالي وساء، أنظر إلى وجهي في المرآة لا أرى في انعكاسها سوى شبح جثة خاوية لو عصفت بها الرياح لأردتها قتيلة.

كان الفصل خريفًا حسب فصول الحب، تساقطتُ كورقة جافة فوق تراب الغياب، أخذت الوردة الجافة التي أهديتني إياها أظنني الآن فهمت قصدك، كما فهمت قصد تلك العجوز حين قالت لي: " عيناكِ المشعتان أملًا سيخبت بريقها يأسًا.. روحكِ المتراقصة فرحًا ستترنح وجعًا"

ذبلت وخبتت يأسًا وترنحت وجعًا، أصبحت تكلمني مرة كل أسبوع كمن يؤدي واجبًا ثقيلًا عليه، ولأني لا أحب أن أكون ثقلًا على قلب أحد أزحت عنك هذا الثقل وانسحبت في صمت يحرقني، أردت أن أرى حالك في البعد، سنتعادل وأغيب عنكَ أنا أيضًا، لكنها معادلة غير متساوية، أنا سأغيب مكرهة، وأنت تغيب لأنك أحببت الغياب!؟ أفعلًا أحببت الغياب؟ أحببته أكثر من حضوري ؟ مررت بمقولة ل دالاي لاما يقول فيها : " اعط من تحب جناحين كي يطير حرًا، وجذورًا كي يبقى، وأسبابًا كي يعود" فأحببت أن أطبقها معك، الجناحين.. حسنًا لقد أخذتهما، والجذور تركت لك قلبي كله وحبك المغروس فيه، وأسباب العودة لك الوجد والشوق والموطن، موطنكَ بقلبي، فاغترب حيث شئتَ.

أجدك متصلًا على الفيسبوك فتنتفض نبضاتي شوقًا، أشتاقك جدًا وأكره اشتياقي لك.

اشتياقي لك يفسد علي متعة كل شيء، وأجدك في كل الأشياء، أهرب منك لأجدني معك في خيالي، في أغنية، في رواية... وكأن كل المخارج التي أسلكها هربًا منك هي مداخل سرية إليك!! وهذا حالي معك، توهان داخل توهان، وبتُ أراكَ فيّ أكثر مما أراني.

يخرج الشوق أصابعه المبتورة التي قطعها الكبرياء كي لا يصلك، فيعاند الشوق عجزه ويصل إليك فيكتب:

- اشتقتكَ!

تجيب بعد ربع ساعة :

- أنا أيضًا.
- لا واضح !
- ألا يبدو علي أنني اشتقتكِ؟
- لا أبدًا ! من يشتاق لا يغيب.
- ....
- ألم أخبركَ؟
- بماذا ؟
- من يشتاق يسأل ويتكلم، لا يهمل.. أنت قرأت الرسالة ولم تكلف نفسك عناء الرد، وتقول أنك اشتقتني؟!
- ....

يستفزني صمتك، فألح عليك أكثر، وأرسل لك :

- ؟؟؟!!!
- ماذا تريدين الآن؟ تريدين أن نتخاصم ؟ لن أرد عليكِ.

ذهبتَ ولعنت شوقي الذليل الذي لا يزيدني إلا حنقًا عليك، أقوم أجوب غرفتي ذهابًا وإيابًا بعصبية، وبراكين نار قد انفجرت في وجهي وارتفعت حرارتي.

كتبت لك بعصبية:

- تريد أن تغيب...حسنًا، غب كما شئت، ولكن إياك أن تكلمني مجددًا.

كنت أنتظر منك أن تعتذر، أن تراضيني، كما كنتَ تفعل دائمًا، لكنك أبدًا لم تفعلها، لشدة غضبي حذفت رقمك وحذفتك من حسابي، ثم رميت بالهاتف حتى ارتطم بالجدار، واستسلمت لخيبة جديدة تعانقني بخبث.

مضت ليالي من الترقب، ليالي من الإنتظار، وكل الأيام التي تلتها كانت ليالي طويلة، ليل عقيم يتعقبه ليل أليم، اكتسبت فيها من العادات أسوءها، الغياب يجعلنا أسوء، يُخرج أبشع ما فينا، الغياب يجعلنا نعتاد وجع، وأي شئ إلا الغياب نفسه فإنا لا نعتاده.

آخذ صورك أتأملها، أطيل الوقوف عند عيناكَ، أكرهكَ وأحب عيناكَ، فهما أصدق قولًا منك، وأعمق إحساسًا منكَ، وأحن عليّ منكَ.

أحتسي أكوابًا عديدة من قهوة الغياب بقطع المرارة، ثم أستلقي على السرير وأشرد في اللاشيء لساعات، فوضى عارمة تشغل الغرفة ولا أكترث لها، فبداخلي فوضى أعظم منها، إكسواراتي مرمية على الأرض، وعلبة طلاء أظافر مكسورة غطت الأرضية بلونها الأحمر، أغلقت الباب في وجه الجميع لأرتمي في أحضان الحزن، وفُتحت نافذة التساؤلات التي أصابت عقلي كأسهم.

أحقا انتهينا؟ افترقنا؟ هكذا بكل بساطة ابتعدنا؟ وكل الذي كان بيننا حال للزوال؟ لكن الحب الكبير لا يزول، لا ينتهي مهما حاولنا بالبعد قتله لا يموت، يعيش داخلنا في القلب والروح، يختبيء بين ثنايا الذاكرة حين نحاوله طرده، وكأن الأمر بأيدينا! يظل عالقًا في رائحة عطر لحظة عناق، في أغنية كانت لنا، في قصيدة تجمعنا، في عابر يحمل بعضًا من ملامحنا، أو قصة تشبه قصتنا، أو في حنين يدق أبواب القلب دون استئذان.

ولأول مرة أشعر بما قصده نيتشه حين قال " من لا يستطيع التخلي عن شيء لن يستطيع الإحساس بأي شيء" وعن إحساسي في الغياب؟ ألم فاض عتبة الوجع، خالط أسوء أنواع المرارة في كأس وتجرعته، أشعر بأنني ضعيفة وكل قواي عندك، أشعر بأن قلبي انتُزع من صدري وهو بين يديك تعبث به، أشعر أنني في ظلام والنور بين

يديك، أنني أغرق وطوق نجاتي أنت، أشعر أنني في تعاسة وسعادتي في عيناك، أنني في وحشة وأنسي أنت، أشعر أني أحبك لكن أكرهك.

وهاج قلبي بأمواج من المشاعر المحرقة، في مد وجزر وأعاصير غيرة حين أفكر بأن هناك امرأة أخرى تشغل قلبك!

قل لي يا وجعي بأي ذنب نخنق حبنا؟

قل لي لماذا نظميء القلب و ماء القرب بين أيدينا؟

ابتعدنا...

ربما افترقنا!

والحنين شردنا...

تباعدنا..

وبشرارة الفراق انطفأنا.

انسدلت جدائل أحلامنا.

بعد أن تواعدنا...

عارضت الأقدار طريقنا.

وتباعدنا.. وتعادينا...

ولأول مرة أجرب البكاء بجرة قلم، والبوح للورق، وحده الورق كان شاهدًا على فجيعتي وخيبتي، يفرش لي صفحاته العذراء النقية لألوثها بدمع المقل وحبر الوجع.

وجدت الورق عزائي الوحيد في مأثمي، وجدته ركنًا منسيًا أتخلص فيه من كل ما يثقل قلبي، فأخذت أكتبك وأمحوك كما أريد، أكتب لك ما عجزتُ عن قوله لك، فأخفي

أوراقي أو أمزقها كما شئت، أكتبك فأشعر أنني قد تحررت منكَ، وحين يأسرني شوقك أتحرر منك ثانية بالكتابة، كلما امتلأتُ بك أكتبك فأفرغني منك مجددًا.

هكذا صار الورق يحفظ كلماتي السرية، يشهد انكساراتي وانهزاماتي السرية، حنيني وضنيني السري، شوقي وحنقي، يعلم متى بدأت الكتابة ومتى انتهيت ومتى توقفت للبكاء!

من هذا الخراب بدأت قضية الحرف، جعلت من هزيمتي المدمرة سطوراً منمقة تثير الإعجاب والدهشة حينا!

لم أكن أدري أن الكتابة تلملم شظايانا، وتجعل من خساراتنا بطولات يشهد لها الأدب ! رغم أن الكلمات لا يمكنها أن تختزل ما في حنايا قلوبنا من حكايا، إلا أنها تخفف من بذاخة الحزن الذي يسكننا، لذا أصبحت الكتابة رفيقتي وملاذي السري الذي أعري فيه عن غضبي، حزني، شوقي..

هيستيريتي، وأتمرد فيه على كل شيء.

إذن ألم يخجل الغياب بعد من خطيئته؟

ألم تعتري الغياب لحظة ندم على ما اقترفه من ذنب في حق قلبي؟

ألن يتوب الغياب من جرمه؟

أنتهينا حقًا؟ ورجعتنا مجرد توهم؟

عاندتَ وكابرتُ، وأعلم أن كلانا يترقب، كلانا ينتظر كلمة من الآخر، لكن أحدنا لن يفعل!! فلا كبريائي يسمح لي بالسؤال عنكَ ولا غرورك يتنازل فتسأل.

أإلى هذا الحد بات حديثنا مستحيلًا؟

أحمق هذا الكبرياء وهذا العناد الذي لا يحقنني إلا بمورفين الوجع، هكذا بدا طريقنا يغشوه الضباب من كل جانب، فلا أستطيع التقدم ولا التأخر، أقف في مكاني أنتظر نورك يأتي من حيث لا أدري، يرشدني للطريق الذي سأسلكه!

أنتهينا حقا؟ ووحدي أنا من بقيت متشبثة ببصيص عودة؟

غمرتني الشكوك والظنون حتى غيبتني عن الواقع، فما عدت أدري بأي زمان أنا، والزمن الوحيد الذي يدركه قلبي هو زمن الغياب الطويل، كألف سنة مما نعد!

هكذا مرت شهران! شهران فقدت فيهما قلبان -قلبي وقلبك- غيبت عني فرحتان - رؤية عيناك وضحكتك- وروحي بالغياب باتت كأعجاز نخل خاوية! ملأني الفراق شقاءَ وفقدًا، أفرغ دواخلي من كل سعادة.

ها أنا ذا أقف وسط أنقاض ذكريات ظننتها في يوم ما أنها "حب"..

ألم يكن ما بيننا حبًا؟ إذن أين هو اليوم؟ وأين أنت من هذا ال " حب"؟

وحده الخراب المفجع الذي حل بي هو من أكد لي أن ما كان بيننا حبًا، حبا قويًا لدرجة أن الغياب دمرني، شتتني.

ها أنا ذا أهذي مجددًا، وأذكر حبنًا، وأشرد في كلماتك التي كنت تقولها ذات "حب".. أذكر حين كنت تناديني ب" جوريتي..حبيبتي..."، أو أم عيون واسعة، أو أم لسان طويل" فأبتسم قهرًا وأموت سرًا !

رباه كيف ل"فراق" أن يحرق القلب بالجوى، ويسحقه وجدًا؟

أتخيلك أمامي، أمد يدي لملامسة ذقنك، فيوقظني السراب من أوهامي "لم يعد هنا.. لقد رحل" رحلت إذن يا رجل.

السراب، يارجل الحرائق..

أهرع لشرفتي، أتذكر ذلك اليوم في بداية جنوننا، حين جئت إليّ في منتصف الليل فقط لأطل عليك! ذهبت أتأمل المكان الذي كنت قد ركنت فيه سيارتك وأسرح في الذكرى، شعرت بدموع حارقة تخترق خديّ، ومرارة زجت بي من قرارة القلب، ألن تجييء الليلة أيضً ا وتضئ عتمتي؟ تعالَ.. تعال إليّ.. تعال لقلب مشتاق.

غابت شمسي بغيابك، وتوارى القمر بتواريك، فمن ذا الذي يبقى لي بعدك، وبعدك تموت كل الأشياء؟

زال بيننا الكلام لكن الحب لا يزال! قطعنا حبل الوصال لكن حبل الشوق ما زال يشدني إليك، أي حال مجنون أوصلني إياه حبك !

حين فقدتك تعلمت كيف يكون شعور الغصن المكسور، والورقة المتساقطة في فصل الخريف، وشعور الناي المجوف، والأرض بعد سنوات من الجفاف، بتخليك عني تعلمت كيف يجتمع الجوى والوجد والوجع في صدر واحد، ويذروه هشيمًا تناثره عواصف الشوق، تحاول أن تلملم نفسك بعد غياب الحبيب، وكيف تلملم نفسًا غابت هي أيضًا؟ تصبح فجيعتك فجيعتان، فلا أنت تستعيد نفسك ولا الحبيب يرجع، وتبقى واقفًا هناك بين "نفسك" و "هو" وسط ركام الحب تقتفي أثر حبيب مفقود، وفؤادك منزوع.

وبدأت محاولاتي في استدراج التناسي لأبلغ برج النسيان الشاهق، حين استجمعت اتزاني قليلًا عزمت على قرار النسيان.

أن أنساك، يعني أن أغيب عن بالي ذكراك، أن لا أفكر بك، أن لا أهتز حين أسمع اسمك، يعني أن لا أشتاقك، أن لا أبكي حين تمر بي الأغاني التي كانت لنا، أن أطرد صوتك من مسامعي.

أن أنساك؟ وكيف لي أن لا أذكرك وأنا ما زلت أهواك؟

لم أعلم من أين أبدأ بالنسيان، أقول سأنساك هذا اليوم، ولا يمر يوم من قولي حتى أشتاقك، حتى بات هذا النسيان مصطلح استفزازي، النسيان مجرد كذبة اخترعها عاشق ليستر به شوقه ويرضي كبرياءه، فقال كذبًا " نسيتك" بدل

" اشتقتك".

مردي الآن إلى تصديق وهم هذا النسيان، عله يهدأ من عذابي قليلًا، بدأت بحذف الرسائل والمحادثات والصور، وكأنها ليست محفورة داخلي!

لكن استدراج النسيان لم يكن إلا بطاقة دعوة للماضي، بحضوره المغري وذكرياته الثقيلة، وأنا بت مثقلة الذاكرة.

لم يأتني بك الشوق بعد ليالي حنين عقيم.

لم تستدعيك الذكريات المعلقة في ذاكرتك وفي كل مكان.

لم تأتني بك أغنيتنا التي سمعتها للمرة الألف بعد فراقنا.

لم تجرفك إليّ دموع الفقد التي عصرت قلبي.

وجاء بك النسيان..!!

أكان عليّ أن أقرر النسيان منذ أول ليلة فراق لتأتي؟

في ليلة النسيان الثالثة، استخرجك النسيان من دهاليز الفراق ووضعك أمامي!

في اللحظة التي تعلن للجميع بأنك قد نسيت، تقولها بابتسامة نصر من تغلب على العدو، نعم نسيت.. حتى تظهر جثة الذكريات من العدم، كأنك استعملت كلمة النسيان كتعويذة من التعويذات التي تقال في جلسة تحضير الأموات، فتطاردك بصور الذكريات من كل زوايا القلب حتى تقنعك بأنك ما نسيت.. لا ما نسيت!

أخذت هاتفي أتصفح حساب الفايسبوك، كعادتي أقرأ المنشورات، أشاهد الصور.. أشغل نفسي بأي شيء يبعدني عن دائرتك، فتحت الماسنجر، فاهتز قلبي داخل أضلعي الباردة وارتعدت أطرافي حين رأيت اسمك في

Message requests !!

بالكاد سيطرت على ارتجاف يدي وفتحت الرسالة بتردد، في البداية عزمت على أن لا أفتحها، لكن الفضول دفعني لمعرفة سرك! كتبت لي فيها "مرحبًا، كيف حالكِ" كنت قد أرسلتها منذ ساعتان!

أخذت أفكر هل أجيبكَ أم لا؟

بعد دقائق من دقات قلبي المسموع أجبتك:

- ماذا تريد؟

(أحقا هذا ما كنت أعنيه؟)

- كيف حالك؟
- بخير
- ما أخبارك؟

(كنت أنوي نسيانك) !!

أخذ الجواب مني نصف ساعة، اجتاحتني رغبة ملحة للبكاء، استجبت لها دون مقاومة، بدأت أهذي من وسط دموعي " لماذا جئت الآن؟ لماذا عدت الآن؟ حتى حين عزمت على نسيانك، ماذا تريد مني ...."

كتبتُ له :

- كالمعتاد.

(كاذبة أنا فما من شئ بقي كالمعتاد منذ أن غاب وعاد) .

- لم تسألي عني ولا مرة؟ كأنني عدوكِ؟

كل ما عشته من ألم في غيابك حقنني بجرعة غضب، عتاب، وددت لو انفجرت في وجهك باكية، لكني استعرت برودك هذه المرة وقلت:

- ولم قد أسأل؟ أنت من أراد لنا هذا..
- أنا؟ وهل طلبت منك أن نفترق؟
- لم تقلها حرفيا، لكنك أردتها فعليًا.
- لم أفعل لك شيئًا، تظلميني دائمًا.
- أظلمك!!

أهناك ظلم أكبر من أن تترك قلبًا معلقًا بين الحياة والموت، بين الغرق والنجاة، وبين ال "بين" و "بين" هو لاشيء !!

تقول:

- نعم يا ظالمة !

حاولت أن أحافظ على برودي معك وأن لا أشي بحرائقي، تركت رسالتك دون جواب لترسل لي بعد دقائق:

- اشتقتكِ يا ظالمة.

لأضحك مغلوبة على شوقي وعشقي، ضحكت وكأنك لم تبكني من قبل! دوختني كلمتك، لامست عمق اشتياقي، شعرت وكأنك عانقت روحي بكلمتك، عملت كلمتك في نفسي عمل السحر، وكنت تجيد الإطاحة بي، كما أطاحت عيناك بقلبي من أول انتفاضة! وقد حان وقت ثورتي وتمردي أنا، أجبتك:

- يشتاق لك الخير.
- لا أريد أن يشتاقني الخير، أريد أن تشتاقيني أنتِ.

مسحتُ آخر دمعة شوق مكبل ولم أجبك مجددًا.

ثم بدأت تسألني عن أمور عادية وأجيبك على قدر السؤال.

قلصت من حجم اهتمامي بك وسؤالي عنك، كبحت غيرتي، حتى خوفي عليك الذي غالبًا ما يكون مبالغًا فيه! لكني لا أكاد أتخلص من خوفي وقلقي عليك كخوف أم على طفلها الوحيد بعد سنوات عقم طويلة، فأخفيت خوفي بين ما أردت أن يتساوى إهتمامي بإهمالك، حرصي بلامبالاتك، برودك باشتعالي، كانت حربًا لا بد أن أكسبها، فإما أن أستعيد كبريائي أو أطيح بغرورك!

حاولت ترويض قلبي على أن لا يطمع بالكثير منك، حتى إن حصل على القليل رضي به، لكن قلبي لا يُروض ولا يرضى بالقليل، كان مراده أن يحصل عليك كلك، فالقليل لا يشبع الكثير من الحب بل يزيده جوعًا!

أزهر قلبي باهتمامك، بعدما أذبله فصل الفراق، فالإهتمام ماء الحب ، يروي، يسقي، ويحيي القلب بعد موته، ويخلد الحب... أحطتني بجناحي أمان كملاك، وأعلم بأنك لست بملاك، ولكنك "أنت" حارسي، أماني وأنيسي.

ها هو الحب يعود بحضوره الأول ولهفته الأولى، وتصالحت الأقدار معنا بعدما عاقبتنا بالحرمان، لم أستطع أن أقاوم إنجارفي إليك - مجددًا- كل ما فيّ كان يدفعني بقوة إليك، وكل ما فيّ يهوى الغرق فيك، كانت عيناكَ تدعوني للتصوف والإنفراد بهما عن العالم، وبين ارتباك وانبهار لفظتها، تلك الكلمة قلتها، تلك الكلمة التي لا تنطق بها إلا في سكرة عشق "أحبكِ".

أربعة حروف تهزني، ترجني، تربكني، أشطرها لنصفين "أح" و "بك" أفسرها على هواي "أح" تجمع بين الألم واللذة في آن واحد، و"بُك" تكاد تكون "بِك" وحين أجمعهما يرتسم لي معناها في خيالي : أتألم بك وأتلذذ بك !!

متضادان هما لكنهما يحملان معنى الحب بكامله، فالحب يجعلك تسعد وتشقى في الآن ذاته!

وأنا بكَ أسعد وبكَ أشقى.

وأستحضر لقائي بك، بعد ذلك الفراق الطويل، بعد أن حفر الشوق في فؤادي خزائن للوجع!

يا رجلًا زادني غيابه شغفًا، وأثقلني فراقه حنينًا، ماذا فعلت بقلبي؟

يا رجلًا عبر قلبي على غفلة من الحب، فسكنني واستوطنني، منذ متى يقيم العابرون في غير ديارهم؟

وقفت أمامي على مرأى من ارتباكي، اقتربت منك وتوقفت عند عيناك طويلًا، ذلك الرمادي المسكوب في عيناك أفشى بشوقه وحنين باذخ، أمامك شعرت بأنني أضعف من أي وقت مضى، حتى من ليالي الشوق، وأني أحتاجك لأشفى من شقائي، القرب منك يصعب معه الشقاء، يسهل معه الشفاء، اقتربت مني وخطفتني لحضنك في غفلة!

لم أستطع كبح رغبة أضلعي المرتجفة لعناقك، رميت برأسي على صدرك، وارتمت معه أحزان عمر..

اعتصرتك بين يداي، كاعتصار قلبي في فراقنا، شوقًا وندمًا.

موجع ذلك الفراق، موجع هذا اللقاء، موجع ذلك الزمن بين الفراق واللقاء، وفيه عمر من الآلام ودهر من الخيبة والضياع.

بكيتكَ أم بكيت نفسي؟ أو ربما بكيتُ زمنًا أهدرناه في البعد!

لا أدري حقًا ما الذي جعلني أبكي بين ذراعيكَ، أخذتَ تمسح غبار الخيبات عن شعري وهمست لي " ابكِ كي ترتاحي"

ومن قال أن البكاء يريح، البكاء يندب الجراح ويستدعي باقي الخيبات من مرقدها، وكأن القلب لا يكفيه وجع واحد وبكاء واحد، كل الدموع التي بكيتها كنت أشعر بها تثقل حملي، ويزدني البكاءَ بكاءَ لا يسمن ولا يغني من راحة.

ثم تسألني :

- لماذا تبكين؟

وكيف لا يبكي من لمس الحلم بعدما ظنه وَهمًا مستحيلًا، أحتفظ بجوابي لنفسي، وأشد بقبضة يدي على ثوبك الرياضي، فتعيد سؤالك:

- أخبريني لماذا تبكين؟

يخرج صوتي مخنوقًا مهزومًا:

- اشتقتكَ.

وتخرج منك ابتسامة رضى ونصر !!

هذا الدمار الذي شتتني شاهد على انهزامي، هذا الإحتراق الذي سحق جسدي شوقًا شاهد على انهزامي، وكل العواصف والأمواج المحرقة شاهدة على انكساري وانصياعي لجنون حبك، للامنطق، فالحب لا يعلن عن نفسه إلا في الأماكن الخارجة عن حدود المنطق، تحالفت الأشواق فانهزمنا والتقينا!

ورضت عنا الأقدار مجددًا و أدخلتنا جنانها مجددًا.

أتحسس رقبتي كل حين، ألمس السلسال الذي طوقت رقبتي به، وأسرح في الحرفين المحفورين عليه، منذ ذلك اليوم الذي ألبستنيه وهو لا يفارقني، تشاكسني ذكرى السلسال حين لامست أناملك رقبتي، وأبتسم في خجل، وجدتني أحببت استوطانك لي وانصياعي لك، كنتَ ابتلائي الذي بعثر كبريائي ، كنت أجمل لعناتي، وعادت إليّ الحياة حين عدتَ لي.

أحتار فيك، وأحتار في قلبي، وهبكَ قلبي أول حبه، ليكتشف أنه ما نبض من قبلك أبدًا، ليتحسر على حياة لم يعشها قبلك، ليرتجف خوفًا وينتفض لحياة الأموات التي سيعيشها بعدك إذا ما جاء بعدُك.

حاصرتني عيناك، طوقتني أشواقك، قيدتني ضحكتكَ، حاوطتني رجولتك، وسجنني صوتكَ، وأصبحت أسيرة عشقكَ.

وأذكر قولك ذات ليلة :

- رويتُ قلبكِ بالحب ما يكفي لسنوات من الجفاف، وعمر من الذكريات.

قلتُ لك:

- والشوق حين ينتشر في الضلوع انتشار الحرائق، لن تصلح معه الذكريات، تصبح الذكرى كعود ثقاب يزيد من افتعال الحرائق.
- لماذا تعقدين الأمور دائمًا؟ تفكرين في الأسوء، وتقصين الأجمل من تفكيرك، ترين الموت قبل الحياة، تستعجلين الفراق قبل اللقاء، حتى في سعادتك تسبقين الدموع، لا تستعجلي الأمور، كل شئ يلتقط موضعه من القدر، عيشي لحظاتك الجميلة و كأنها بغير انتهاء.

صمتت مفكرة في كلامك، صدقتَ في كل ما قلته.

- تفهمني أكثر مما أفهم نفسي، لذا أحبك أكثر مما أحب نفسي.
- أحبيني بلا خوف، بلا شك، أحبيني بلا تعقيد، أحبيني على مهل.. بلا نهاية.

قلتُ لك :

- أنت اختزلت لقلبي كل الحكايا، لن تترك لحب بعدك سوى البقايا.
- عدنا للبعد مجددًا !

- لأن الخوف من الفقد هو الوجه الآخر للحب.

لا أدري كيف سرقتني نجواك من أفكاري وخوفي، لكنك تدري كيف يمتص صوتك وكلامك كل ما يقلقني، تجعلني من كلامك أنبهر، وقلبي من حبك يحتار، وبسكرة عشقك أسهر هائمة في هواك دون ضجر.

أسيقظ صباحًا في ساعة متأخرة، صباحات لا تغري بالكسل والنوم، خاصة إذا ما كان النوم قد تبعثر في حضرة الحب، تقلبت في فراشي بكسل متلحفة كلمات الأمس الجميلة، لم أنهض إلا حين باغتني جوع لا يقاوم، كحبك الذي أيقظ حواسي للحياة وشهيتي للأكل، كما أنه أغراني بالكتابة ! تمشيت على أطراف الأحلام، أتراقص مع حروف تلبستني فجأة، كما خلعت كلماتك مني الخوف عنوة.

دخلت للمطبخ وجدت أخي جالسًا إلى المائدة يقضم قطعة كيك ويحتسي القهوة، جلست مقابلًا له بعد أن ألقيت عليه تحية الصباح، صببت في كأسي القهوة وشاركته الفطور في صمت، الصمت المربك الذي نتشاركه دومًا وكأن بيننا حدود تفصلنا وتوجعني، حاجز يعيق اقترابنا، لا أعرف كيف أبدأ معه حديثًا، وحين يبدأ سرعان ما ينتهي، أنتبه إلى أنه لا يكترث لكلامنا الموجز، وصمتنا الطويل، المربك والموجع، ربما يراه نوعًا من الوقار والإحترام بين أخ وأخته، رغم أنه يكبرني بخمس سنوات، لكني أراه تنقيصًا من قدر الرابطة التي تجمعنا، رابطة الدم الأقوى والأنقى من أي رابطة قد تجمع شخصين غريبين جمعتهما طاولة مقهى أو شارع، فقد تشاركنا ذات الرحم، ذات الحليب، وذات المسكن، الأجدر أن تتسلق رابطتنا سلم العلاقات لتكون الأول والأهم، لأنها تستحقها عن جدارة، لكنني أصمت كما يصمت هو، وأترك تساؤلاتي معلقة في فضاء الصمت.

تسللت لمذكرتي الذهبية، يتوسط غلافها قلب أحمر، كأنها قد جهزت من قبل للكتابة عن الحب!

فتحت مذكرتي وكتبت:

ولَعَمْرُكَ والعُمْرُ بعد عُمْرِكَ عُمْرٌ مجرد من ال"ع"

مُرٌ مَريرٌ يَمُرّ على مَرَ المِـرار .

أخذت صفحة أخرى:

" ما كنت أدري أني سأحبكَ مرتين، وألقاكَ مرتين، مرة على الواقع وأخرى على الورق، أهرب منك في واقعي، لأجد طيفك يتربص بي بين كلمتين وحرفين .

وبين حب وحرف.. أحبك وأكتبك.

فكيف سرقت قلبي من صدري؟ كيف سرقت كلماتي من قلمي؟

عيناكَ كانتا لي إلهام، أنقظتا القلب من ركام أوهام، ألامس الكلمات، فأجدها كملمس يدك، تطفيء الخوف وتشعل الحرف، تُربِك النبض وتُرجِف القلم."

تركت مذكرتي في الدرج السري حيث أخفيه، رغم أن لا أحد يفتش أغراضي، إلا أني أخشى أن يقع صدفة في يد أحد فيقرأني، وكم أخجل أن يقرأني أحد، حين يقرؤك أحد فإنه يعريك، يخلع عنك غموضك، لتتراءى له خطاياك الحبرية، هزائمك الحبرية، وجراحك مكشوفة، مفضوحة، لذا أحتفظ بها لنفسي، أترك مكتبي بعد أن دبرت معه موعدًا في المساء بذات الشهوة الأدبية، وأذهب إلى أمي أجدها في المطبخ جالسة تفكر في أمر ما، بسنواتها التي قاربت الخمسين، وشعيرات رمادية قد خالطت خصلات شعرها الأسود الليلي لتضيئه كنجوم! أجدها جميلة بتقلبات العمر وألوانه، بخطوط الزمن في يديها وحول عينيها، أجلس على طرف الكرسي بنية مشاكستها.

أقول لها:

- أتفكرين بحبيبك يا جميلة؟

تنظر إليّ وتهز رأسها بمعنى " صبرني يا رب"

أقول لها مجددًا:

- أَلم يكلمك اليوم ؟

تجاريني في جنوني:

- لا لم يفعل.

أقترب منها بحذر وأهمس لها:

- ربما يخونكِ!

وأفر بعيدًا عنها خوفًا من ضربة عابرة للقارات، تأتيني ضحكتها من المطبخ ثم تقول لي :

- أنجبت مجنونة! تعالي وجهزي معي الغداء.

أشد شعري أعلى رأسي، استعدادًا للمهمة، وأدخل المطبخ مجددًا بعد أن تأكدت من زوال الخطر!

عاد الجليد يكسوك، وعادت النيران تحرقني، عدتَ لبرودك مجددًا، وعدتُ لجنوني مجددًا .

تدور بي أيام الغياب، تصيب عقلي بالدوار، وتلقي بقلبي في دروب من الإحتيار، وأضل الطريق الذي سيوصلني إلى فهم غموضك.

لماذا تغيرت؟ لماذا تبقيني دومًا خلفك؟ كأنني ما عدت من أولوياتك، ما عدت زهرة خريفك، ما عدت نجمة سماءك، ما عدتُ جوريتك.

غبتَ فتبعثرت الأحلام، ونثرتُها أوهامًا في السراب، غبتَ وألقيتني من سماءك، كشهاب سقط، تشظى، تحول رمادًا تدسه بأقدام الغياب.

أعود لإنطوائي الذي يزيد في مواسم حزني، أغلق نوافذ السعادة، لأنفرد بحزني، وينفرد بي، كأنني أحب حزني! لكنني حتما لا أحبه، لكنني أعيشه بكافة تفاصيله الموجعة، الكئيبة، كما أعيش سعادتي بتفاصيلها المفرحة وبضحكاتها.

أعتزل الجميع، أعتكف على حزني، وألتزم بكامل عقائده، أبكي حد القهر، أختنق حد الموت، أسهر حتى ساعات الصباح الأولى، إلى أن ينتهي موسم الحزن فأعود لحياتي الطبيعية.

من أين جئت بكل هذه القدرة بالتحكم في قدري، فتكتب الشقاء لأيامي في غيابك، والسعادة في حضورك؟ أتساءل كيف تتحكم بأيامي ونسيت بأنكَ قدري.

لم يبقَ لي شئ من يوم غيابكَ، سوى إنتظار يحجز مقعد يأسه بجانب الضجر.

أترقبك في قلق، أنتظر كلمة منك تطفيء هذه البراكين، أو تزيدها اشتعالًا، بما أننا كنا في عطلة الصيف فلم أكن أراك كل صباح - كما نفعل في صباحات أيام الدراسة- حين أمر بمحاذاة طريق القدر ونلتقي هناك لدقائق.

لم أكن أراك لأفسر ملامحك، وما تخفيه نظراتك، لم تعد تكلمني حتى، فكيف أراك..

لم أكن أرى سوى صور تنزلها على الفيس بوك بين يوم وآخر، في كل صورة كنت تبدو عاقدًا حاجبيك كما تفعل حين تسخط على الحياة أو حين لا يعجبك شيء، كل ما تمكنت استنتاجه من الصور أنك منزعج من أمر ما لا أعلمه !

وبدأت أشعر بجثمان الفراق يثقل على قلبي من جديد، حتى سريري تعب من حمل كوابيسي التي باتت لا تفارق ليلي.

لا أجد عزائي ومنفذي إلا في أوراق متبعثرة، وحبر أسود، وعتب تعب القلب من حمله الثقيل، فأتخلص منه على الورق بكلمات غاضبة، ثائرة، موجعة تعري ضعفي، حتى أصبحت الكتابة تنفض عن قلبي غبار هذا الدمار الفظيع، تنقذني الكتابة من الشكوى، لتورطني مع الذكرى.

أصبحت أنا من أبادر بالحديث خوفا من فقدانك، وأنا أعلم حقًا أنني قد بدأت أفقدك، أو ربما.. فقدتكَ؟

في كل مرة أقول سأتوقف عن طعن كبريائي بالحديث إليك، إلا أن الشوق يتبرأ من كل كبرياء في حالة اشتعاله، فيسعى طمعًا لجرعة حب تطفئه، أهنتَ كبريائي بصمتك الطويل، باللامبالاتك التي تصد اهتمامي، في كل مرة تترك الحديث في أوله مبتوراً، ثم أثور عليك وأتركك للعنة غيابك، تغيب وتأتيني متى شئت ثم تغادرني متى شئت، ضمنت امتلاكي فأردت إذلالي، كأنني قد صرت شيئًا، لا قلبًا يحن، يئن، يبكي ويتألم.

مر أكثر من شهر، والقلب معلق في خطوط الزمن، والصمت يكبر ويطول النفس بالكدر، أراقبك من بعيد فأجد أن الوضع قد راقكَ، وأنا قد أحرقني.

حتى طقوسنا وعاداتنا باتت لك مجرد ذكرى عقيمة، توارت مع الزمن المنسي.

أستدرج قلبك بصدفتنا الأولى، وحديثنا الأول، لكنه لا يستجيب، لا تسمعني إلا أصداء صمت عنيد.

أشاكس مشاعرك بأغاني كانت لنا، سمعناها معًا حين كنا سوية، لكن مشاعرك أصابها الصمم فلم تعد تهتز لأنغام أغانينا.

استفزني وضعنا، أغاظتني محاولاتك لإهانة كبريائي.

تهرب مني لكنك لا تتركني حقًا، تنفر مني لكن لا تبتعد عني كليًا.

لا تذكرني حتمًا، لكنك لا تنساني حقا.

تهجرني حتمًا، لكنك لا تغادرني أبدًا.

و من بين كل هذه التناقضات أنسحب، أنسحب منك بصمت، أجر أذيال خيبتي.

وبين المتضادان يا سيد الأضداد، بحور ريبة تغرقني قهراً وسراً، ورياح ضنين تصم آذاني.

يضيق الكون بقلبي وينثره أشلاءَ من ذكرى غياب.

تباعدنا، الفؤاد انشطر، وفي دهاليز الحزن اندثر، ما الذي يفعله غيابكَ بقلبي، أجبني؟

أذكر حين كنت تسألني عن حالي، لا تقول لي " كيف حالكِ" بل تقول " كيف ورد الخد؟" .

أرى خدي في المرآة، فيظهر لي شاحبًا.. مصفرًا.. ذابلًا.

ذبل ورد الخد أيها الساقي، اصفر في فصل الغياب، فهلا أزهرته برشة لقاء، أو عطر.. قبلة أو لمسة..!

أتساءل اليوم كيف نزلت من رتبة "الأنيس" إلى رتبة "الغريب"؟ وبينهما ارتفاع شاهق يفصلهما، أكان النزول عليك سهلًا؟ ووحدي من دوى صوت سقوطي الفظيع!

تعود بين نسيان وآخر، تشعل جمرة الذكريات بكلمة وترحل. تتطلع على أخباري بفضول النساء ومكرهن، لتتركني بعدها بين سؤالين وترحل.. تمرني مرور العابرين وترحل.

تأتي في ليلة مظلمة تضيء سراديب الذاكرة العتمة ثم ترحل.

تأتي في فصل شوق، تحملك رياح الحنين إليّ لتقول لي " أحبكِ"، ثم تمضي كما جئت بحرائقك، رياحك وعواصفك.

جلست في ذات مساء ممل، أجوب غرفتي مشيئة وجيئة في قلق، كمن يبحث عن شيء فقده، أبحث عن أجوبة لا يملكها إلا ذاك الذي كان "الأنيس" وما عاد!

يلقي في منفضة النسيان شعلة "أحبكِ" ليشتعل رماد الحب. من قال أن الرماد لا يشتعل مجددًا؟ ويحترق مجددًا، وكأن احتراقًا واحدًا لم يكفه وجعًا! يحرق قلبي بغيابه حتى يصير رمادًا، فيعود ويشعله بكلمة واحدة! يذكرني بأسطورة العنقاء، ذاك الطائر الذي يتعمد إضرام النار في عشه حين يقترب أجله، ليحترق ويموت ثم يُخلق

طائر عنقاء آخر من بين رماده!! أيعقل حقا أنني بعد أن أحترق وأغدو رمادًا ستخلق مني أخرى غيري! ستكون أقوى مني حتمًا، وأقل سذاجة مني، وربما ستخلق مني أخرى بلا القلب، فالقلب وحده حين يموت لا يعاد خلقه.

أشتت تفكيري بالنظر إلى التلفاز دون اهتمام حقًا، أقلب من قناة لقناة ولا شيء يدعوا إلا للغثيان، برامج تافهة، وإعلانات تستغبي المستهلك، رميت جهاز التحكم وشردت في سوداوتي، أرد نظري إلى التلفاز فأجد أنني قد تركته على قناة أفلام، ليردني مقطع من الفيلم لوعي هز حواسي، لأنتبه أخيرًا أن الفيلم يحمل عنوان "Closer" ..

كان المقطع بين بطل الفيلم وحبيبته :

Dan: I love you

Alice: where?

Dan: what?

Alice: show me. Where is this love?

Dan: I can't see it, I can't touch it, I can't feel it. I can hear it, I can hear some words.. but I can't do anything with your easy words.

كلام أصاب عمق حالي معك! موجعًا، مختصرًا كل كلام الشكوى والعتاب! لم يكن الحب يومًا كلمة تُلقى على عجل، كما تُلقي السلام على العابرين وتمضي، الحب يُرى ولا يُ قال، يترجم بإهتمام، بيد تحوط القلب وتحتويه، بإحساس يوقظ الحواس، الحُب أن تسندني حين أنهار، وتضمني حين أكسَر، أن تصرف سعادتك في سبيل إسعادي، لا أن تقول لي " أحبك" ثم تلقي بي في غياهب الخيبات..

أتمرد على هذا الصمت المعربد في ليلة ثائرة، لأضع حدًا لهذه الحالة المستفزة حد القهر، حد الموت، بعد أن فقدت آخر خيوط أمل، وعواصف من الحنق والغضب قد تحركت بداخلي، متصلًا كعادتك..

فأكتب لك : أنيس.

لم أكن أناديك باسمكَ هكذا قط، أناديكَ " أنيسي" أو " أنيس قلبي" دائمًا ما أضيف ياء الملكية لأنني كنت أشعر أنك تخصني أنا، فقط أنا وقلبي، ولكم كنت أنانية في حبك أنانية حد الملكية!

يأتيني ردك متأخراً بعد نصف ساعة من الإنتظار :

- أهلًا، أهلًا، ما أخبارك؟

((لا أجبت مبكراً! تأخر قليلًا.. تأخر..))

- أيستغرق الرد كل هذا الوقت؟
- هههه

يا لبرودة دمك؟ أنا هنا أغلي على نيران الغيرة والشك، والغياب وأنت تضحك!

انشطر فؤادي لعمق الفجوة التي صارت بيننا، منذ متى أصبحنا لا نشعر ببعضنا؟ منذ متى صرنا غرباء؟؟

أكمل حربي معك:

- مع من تتحدث؟
- لا أحد
- لماذا تتصرف معي هكذا؟!
- ماذا أفعل؟

لحظة تفصلني عن الجنون أو الإنهيار، وكأن كل ما بي من تعب قد تعب من حمله، فإما أن أسقط الحمل أو أنهار.

لحظة تفصلني عن بكاء هستيري، لو بإمكاني أن أضربه لضربته ألف ضربة وضربة، لصرخت في وجهه ثم أضمه وجعًا وإنكسارًا كأن خلافًا لم يكن.

دائما ما تتركني معلقة بين الحياة والموت، بين الغياب والعودة، بين لهفتي وبرودك، تضرم النار في قلبي ثم تجلس على عرش برودك تتمتع باحتراقاتي، كفاكَ عبثًا بعمري، بربك ارحمني!

أشفقت على نفسي، واستهزأت منها حد القهرية، حين يصل بك الوجع لدرجة الإستهزاء من حالك، حينها يكون قلبك قد شطرته الخيبات والصدمات إلى ألف قطعة وقطعة.

لكن كلامي أبدًا لم يهزك، قلت لي :

- ماذا تريدين الآن؟

وبكل وقاحة تسألني ماذا أريد؟ أريد قلبي، سعادتي، رد لي ما أنفقت عليك من مشاعر عذراء، أطالبك بردي إليّ، رد إليّ نفسي واخلع عنك عمري.

وترتعد الكلمان في خافقتي، وترتجف الكلمات قبل أن أكتب لك:

- إما بقاء كلي، أو رحيل أبدي.
- قولي هذا من البداية.

أسألك بتعجب:

- ماذا أقول؟!
- قولي أنك تريدين أن نفترق.
- أنا أريد أن نفترق؟؟

- نعم.

تجيبني هكذا بكل برود، برود يزيد من اشتعال غضبي..

- لا تتلاعب بأعصابي! أنتَ من تبتعد عمدًا كي نفترق .
- وأنتِ تفتعلين المشاكل كي نفترق .

أثور غضبًا وقد زادتني كلماتك اشتعالًا، كنت أنتظر من نتوصل إلى هدنة أو سلام، لكن الحرب ازدادت تعقيدًا، قلت لك من عمق خيبتي:

- أتعلم أمرًا أنا أكرهك.. أكرهك، جعلتني أكرهك، أتعي هذا؟

وأنهينا حديثنا، أو عتابنا، صارت أحاديثنا كلها عتب في عتب، وصلنا لآخر محطة في قطار الحب، تعاتبنا وتباعدنا، كان الحديث الأخير والعتاب الأخير.

استسلمت مكرهة للقدر وانتهاء الدرب الذي جمعنا!

الآن بعد فراقنا، أدركت أنني أحب عتابنا، أو كما كنت أسميها حربنا، وأدركت أيضا - فجأة- أنني أحب برودك، أحب خصامنا ومحاولاتك لمصالحتي، البعد جعلني أحب ما كنت أكرهه فيك!!

أتذكر ال "أكرهك" التي تفوهت بها، وأتمنى الآن لو كانت "أحبكَ"، لو كانت نهايتنا جميلة أو ليتها ما كانت نهايتنا، أي نهاية ونحن ما زلنا نعيشها، تمسي النهاية نهاية حين تصبح مجرد ذكرى منسية من الماضي، لكنني ما زلت أتنفسها، لم أنتهي منها، ولم أنتهي منكَ، أأنتهي منكَ وأنت مني؟

تخليت عني وسط عتاب وجرح ومضيت..

رحلت بظلك الغامض وسط جروحي، كما جئت وسط ذهولي بحضورك المغري.

تخليت عن عهد كان بيننا ورحلت.

عد ولا تفي لرحيلك، أخلف وعد الفراق، كما أخلفت وعهد حبك من قبل، عد ووفي لي بوعدك.. أنا أولى بك من الفراق، أنا وطنكَ، أنا حبيبتك..

أأكرهكَ الآن أم أحبكَ؟

أأبكيكَ أم ألومك؟

hate you I love you

I hate that I love

I hate you I love you

I hate that I want

أعود بذاكرتي للصدفة الأولى وأرثيكَ، أرثيكَ وأرثي نفسي، الصدفة الأولى، فخي العشقي وتورطي العشقي معك، حين أيقظت حواسي، وقذفت الحب في قلبي من نظرة واحدة!

وأتذكر نظراتكَ، وآآاه من نظراتكَ قد شغفتي حبًا، عيناكَ ورطتي! عيناكَ هيامي وإلهامي، فسلام على عيناكَ وعلى تعثري في دروبهما!

سلامٌ على قدر تخلى عن حبنا في محطة الفراق!

وسلام على ذكرى تغرقني بالأشواق.

الغياب هو الوجه الآخر للحضور، حضور سري، حضور في الحواس، في الزوايا المنسية، في دهاليز الذاكرة، رحلت ولكن جزءًا منك ظل عالقًا بي، أبى أن يرحل معك، رغم محاولاتي اليائسة في نزع كل ما تبقى منك داخلي، أقر بالدمار الذي ألحقني به حبك، لكن رغم الدمار، كنت أجمل ما فيّ، وأجمل ما حياتي، كنت الشئ الوحيد الذي يستحق الحياة أو ربما الموت، كنت أجمل دمار سحقني، كنت أروع هزائمي، كنت

الأجمل بكل ما في، حتى أنني من بعدك لم يبقَ لي شيء إلا ذلك الجزء الذي تركته منكَ فيّ، لأنني لم أكن أملك سواك.

بقي طيفك يعانق وحدة ليلي كأنه يعتذر نيابة عنكَ، وضحكتك التي أحب تبدد هذا الصمت الموحش حولي، وبعض منك في وجه المارة، ذاك له اسمرار بشرتك، وذاك حاجبيك والآخر له ذقن كذقنك، لكن لا أحد كأنت.

وشيء من رائحتك المحببة علقت بذاكرتي، بأنفي أستنشقها كلما اشتقتكَ فتزيدني اشتياقًا، أخبرك أنني أحب رائحتك فتبتسم ضاحكًا.

ونظراتك، أشعر بها في كل مكان أذهب إليه، تخترقني، تحرسني، تحميني.

وأغنية منكَ، لم ترحل معكَ، تذكرني بكَ وتذكركَ بي، أين أنت الآن من لحنها؟ رحلت عنها وعني، لكنها مازالت هنا؛ تتردد هنا وهناك! أبحث عنكَ فلا أجدك هنا ولا هناك! وحدها الأغنية تتردد وفاءًا لذات ذكرى حب جمعتنا بين عزفها.

وملمس يدك الدافئ حين تعانق كفي الباردة، أتذْكُر حين كنت تسألني لماذا كفي باردة، فلا أعلم بماذا أجيبك، ثم اعتدتَها، واعتَدْتُ أن تدفئها لي بين كفيك، ما زال بعض من دفيء يدك يدفئ قلبي من برودة الغياب.

كل شئ حولي يذكرني بكَ، لكن أبحث عنك فلا أجدكَ، تركت لي ذاكرة مثقلة.

مثقلة بذكريات لا تتساقط في خريف النسيان، هجرها النسيان كما هجرتني أنتَ قبله، فلا أنت تأتي ولا أنت تُنْسى، لا الذكريات تسقط؛ ولا أنت تتنحى عن قلبي، ممزقة أنا، ممزقة تحت أنقاض هذا الخراب؛ ممزقة إلى أشلاء حب منسي توراته الأيام وتركتني لعبث الذكريات.

جاء الخريف، فصل الفراق، تساقطت آخر ورقة حب من شجرة قدرنا، وحملتها الرياح بعيدًا.

انتهى الدرب.

الدرب الذي طالما خشيته بلغناه، في ظلامه تهنا، وفي رياحه تبعثرنا، وتدور بنا عجلة القدر، إلى أن تنثرنا بقايا، بقايا دمع وبقايا حزن.

بداية سنة دراسية جديدة، آخر سنة لي وسأتخرج، سأترك الجامعة كما تترك العروس بيت أهلها، تعود بي الذاكرة لأيام وسنين قضيتها هناك بحلوها ومرها، كل التعب الذي هدنا في فترات الإمتحانات، أستلذه اليوم، أتذكر ليالي السهر وأبتسم، أتذكر الهروب من المحاضرات، الوقت الذي يمر بين المحاضرة والأخرى مع الرفاق والمناقشات، أيام المظاهرات، ضحكاتنا أنا وصديقاتي التي تهز الممرات، قهوة الكافيتريا، المحظوظين وحدهم من عاشوا أيام الجامعة بجميع لحظاتها.

لكني رغم هذا لا أحب الأسبوع الأول من السنة الدراسية، يمر كأسبوع الموضى في باريس! هذه تتباهى بعطرها وماكياجها، وتلك بإكسسواراتها، والآخرى بلباسها، لكنني الآن متحمسة لها أكثر مما ينبغي، كانت فرصتي للهروب من بقاياك العالقة بي، أتعلم أننا بعد الفراق نلجأ للأشياء التي كنا نتحاشاها فقط كمحاولة للهروب أو النسيان، كالغريق الذي يتعلق بقشة.

اتصلت بريم وبدأت تلومني على غيابي الطويل عنها، وهي لا تعلم أنني غبت عن نفسي أيضًا، واغتربت في موطن قلبي.

والقلب حين تستعمره الخيبات، لا يطالب بشيء إلا بعزلة، عزلة ينكمش فيها عن نفسه كمن يداري سوءة، يصبح الإستغناء والرحيل مُسكنًا لأوجاعه.

طلبت منها أن تمرني غدًا صباحًا لنذهب معًا للجامعة، لم تصدق أبدًا:

- لحظة، لحظة، قولي أن السماء ستمطر في هذا اليوم المشرق، قولي أن الباندا حيوان لاحم، ولا تقولي أنك ستذهبين إلى الجامعة في اليوم الأول!

أضحك من طريقة كلامها:

- نعم نعم سأذهب.

تقول لي بدهشة :

- سبحان مغير الأحوال، ما الذي حصل؟
- حصلت أشياء.. ألن تمريني؟
- لا أظن أنني سأذهب.

أقول لها بمكر:

- مممم تريدين أن تفوتي اليوم الأول للموضى دون تعليقاتك التافهة؟
- كنت قد نسيت أمر عرض الأزياء، حسناً فلنذهب.
- هذا هو الكلام ، سأنتظرك..
- انتظري أريد أن أسألك أمرًا.
- نعم، اسألي.
- أحقا انتهيتما؟

أعاند الدموع التي تخرص حبالي الصوتية :

- نعم انتهينا، رغمًا عن حبنا، شاءت قلوبنا أم أبت، لكل درب نهاية، ولكل قدر نقطة تقاطع يبدأ بعدها قدر آخر، لكن هذا يعني أبدًا أن البداية الجديدة ستكون حبًا آخر، ربما سيكون الدرب الجديد الذي سنبدأه توفيقًا في أمر ما، تحقيقا لأمنية منسية، أو اكتشافًا لذات انصهرت في نار الحب.

لم تعقب، لم تُسمعني إلا صمتًا، لا بد أن حشرجة صوتي أخبرتها بباقي الحكاية، تقول لي بعد لحظات:

- حسنًا، فهمت أراكِ غدًا.

أقف أمام المرآة، أتأمل وجهًا لم أعد أعرفه، خدين ذابلين، لم يعودا ممتلئين كما قبل، عينين غائرتين، انسكب فيهما الحزن على شكل ألوان.. أحمر، بنفسجي، أزرق، وشفتاي مصفرتين، كنت أقرب إلى شكل مصاص دماء ! أخذت أحدث نفسي إلى متى سأظل هكذا؟ أتوقف بي الزمن عند لحظة الفراق؟ عاندت حزني، عاندت ضعفي، أخذت أبحث في فوضى الغرفة العارمة عن أدوات تجميلي، وجدت محفظتها تحت المكتب، فتحتها وجلست أستر بها حزني كأنني أعلن نهاية الحداد، تزينت وتجملت كأنني سأحضر حفلة، وقفت أنظر إلى شعري أمسكت خصالته بين أناملي، لقد طال حقًا وتقصف، لم لا أقصه؟ نعم سأقصه، أحب الشعر القصير، سأجعله إلى حدود كتفي هكذا سيبدو جميلًا حقًا، أنادي على أمي من غرفتي :

- أمي، ماما، مامي...
- ماذا تريدين؟
- سأقص شعري.
- وسأقص يدك إن فعلتيها!
- حرام عليك يا ماما، الشعر القصير يناسبني أكثر .
- لن تقصيه وهذا آخر كلام.
- أتعرفين ماذا سأطبخ لأمي الحبيبة ؟ تشيز كيك الشوكولاتة يا شوكولاتة .

تضحك:

- وماذا وراء قصة التشيز كيك هذه؟

أكتم ضحكتي بيدي ، هي تحفظ ألاعيبي، أقول لها:

- أدللكِ يا ست الحبايب.

أدخل المطبخ، آخذ من الدرج كل ما تحتاجه الوصفة وأبدأ في خلط المكونات، أخفق بعصبية كأني أقتص منك، بت أهرب منك، أعلم أنه هروب مؤقت، ستعيدني إليك

صدفة، أو يعيدني شوق، أتساءل كيف سأكون إن رأيتك صدفة أخاف أن تفضحني نظراتي أو شوقي، لا بد لي أن أتحاشى كل مكان ترتاده، حتى طريق الجامعة سأغيره، ثم تنزل دمعة حارقة تعري انكساري، ترى كيف حالك من بعدي؟ أما زلت تذكرني أم أصبحت نسيًا منسيًا؟ أغاب طيفي عن أحلامك كما غبتَ عن واقعي؟

ولستُ بنَاسِيَةٍ ذاك النَّاسِي

وإن تَناسَيتُهُ ونَساني ما نَسِيتُهُ

ذِكْراهُ ذاكِرتِي أذْكُرُ ذِكرياتِه

حِينَ بِذِكْرايَ لاتُذَكِّرُهُ ذاكِرَتُهُ

شعرت أن الكلمات باتت خرساء، لكن لها أظافر تنهشني بها، تؤلمنا الكلمات حين لا نجد لها أجوبة لحيرتنا البائسة.

أنهيت وقمت للغرفة أغير ملابسي، وقفت في حيرة أنظر للفوضى، أنظر لزواياه تعمها فوضى، غرفنا تعكس دواخلنا أليس كذلك؟ لكن قد كان لهذه الفوضى أن تنتهي، حينما سأعود سأرتب كل شيء، وسأتخلص من الأشياء المنتهية.. كأنت !

خرجت وأنا أعلم أين سأذهب، تلامس روحي نفحات برد خريفي فترتجف داخل أوصالي كأنها قد بعثت من جديد، دخلت لصالون الحلاقة، وما إن رأتني صاحبته حتى أقبلت تغرقني قبلًا وترحب بي، طلبت مني الجلوس والإنتظار حتى تنهي من صبغ شعر زبونة، أبت أن تقطع شعري أي من مساعدتيها، فهي ابنة جيراننا والأولى أن تشرف عليّ، انصعت لطلبها باسمة وأخذت أقلب صفحات مجلة، لا أدري من شغل الموسيقى، أو أنها كانت مشغلة من قبل، لا أدري كيف ارتجف القلب بين أضلعي، وطلت دمعة عنيدة من نوافذ الشوق حين سمعت الصوت الفيروزي يغني:

بعدك على بالي

يا حلو يا مغرور

يا حبق منثور

على سطح الغالي

مرق الصيف بمواعيدو

والهوى لملم عناقيدو

لملمت انشطاراتي، ومسحت دمعتي، دمعي الذي عاندته لأيام وأيام، طل اليوم من شرفة الحنين على صوت فيروز، طلبت من أسماء "الكوافيرة" أن تطفئ مشغل الموسيقى، وقفت تطالعني باستغراب:

- غريب.. كنت أظنك تحبين فيروز!

شقت ابتسامة من وسط شوقي :

- نعم أحبها، لكن رأسي يؤلمني (لكن الأغنية تؤلمني)

هذا ومازالت الفيروز تغني:

وما عرفنا خبر

عنك يا قمر

ولا حدا لوح لنا بإيدو

بتطل الليالي

وبتروح الليالي

وبعدك على بالي على بالي

غاب الصوت، وقد اصطاد أطياف حب قديم، وعلقت بداخلي: " بعدك على بالي" فتحت نوافذ حنين وتوق كنت قد أغلقتها وأتعمد عدم المرور بها، كل شيء يذكرني بك كنت قد أغلقت عليه أبوابًا، وها هي الآن جاءت هذه الأغنية لتفتحها جميعًا، وتثقلني بشوق لا يقوى القلب على تحمله.

عدتُ للمنزل بعدما نفذت أوامر رأسي العنيد، ما إن رأتني أمي حتى رفعت حاجباي أراقصهما وأخرجت لساني :

- ما رأيك بشعري جميل أليس كذلك؟ ثم لن تضطري لقص يدي، فالكوافيرة من قصته ولست أنا.

هزت كتفاها بقلة حيلة:

- لا تفعلين إلا ما برأسك
- بربك أليست جميلة؟

تضحك:

_ جميلة، جميلة...

دخلت لغرفتي، وما إن أغلقت الباب سقطتُ خلفه باكية، كانت تلك الأغنية بمثابة الرياح العاتية التي عصفت برماد الذكريات حولي، والذكريات في ما بعد الفراق تكون كريمة معنا، كريمة جدًا، ما إن تجد سبيلًا إلى -قتلنا- حتى تنهال علينا كالسيل، وبدأت أئن كمن يصارع مرضًا ما، غيابك كان المرض الذي يفتك بقلبي ويتآكله قطعة قطعة، أنهر نفسي على البكاء فأصمت لخمس دقائق عقيمة، وأعاود البكاء مجددًا، ذهبت سعيًا للهروب منك، فعدت محملة بك، وكيف أهرب منك وأنت مني! وجدت نفسي على حافة الإنهيار، عانقت وسادتي وألقيت بآلامي على سريري المثقل بالخذلان، سرقتني أيدي النوم بسرعة بعد أن تهالك جسدي بالدموع القهرية، وجئتني في منامي، كما أراك في الحقيقة، كان حلمًا بمشاعر واقعية، كنت مستلقية

على السرير أولي ظهري للباب حين دخلت بابتسامتك الساحرة، ومن دون أن تتحدث، استلقيتَ بجانبي وعانقتني من الخلف، وحاوطت خصري بكلتا يديك الدافئتين، وعانقتُ أطياف سلام وفرح، كنتُ شبه نائمة، لكن قلبي كان مستيقظًا، وقد أيقظ قربك مني -كما لم تقترب من قبل- حواسي، كان حلمًا مجنونًا، استيقظتُ وأنا أبحث عنك، لقد كنتَ هنا بجوار قلبي، ورحّلت شبح يتمي، لقد عانقت فرحًا بقربك، كان قد بات مغيباً ومنسياً عني، وإذا بذكرى الرحيل المفجعة تتربص بي من زاوية الغرفة، عُد.. باردة ليالي الغياب لو تدري، بارد صقيع الفراق لو تشعر، باردة وقارصة الأماكن التي لا تكون فيها لو تدري، لو تدري أن عناقك رغم كونه حلمًا إلا أنه أشعل قلبي شوقًا وعشقًا، عناقك المسروق من المستحيل، المسروق من الغياب أيقظ بداخلي رغبة سرية لقربك، وجنون سري للكتابة إليك في الرابعة صباحًا، سيرتني لذة الحلم إلى ورقة وأقلام، اشتقتك وارتويتُ منك على الورق، لكن ليس كل الريّ، بعض الريّ، كان الحلم وشعوره الغريب ما زالا يسكناني، أغمضتُ عيناي في محاولة لاسترجاع الحلم واستعادتك !

وددتُ بشدة تصديق خرافة أن الشخص الذي تحلم به يفكر بك، تعلقت ببصيص أمل بأنك تفكر بي، فأنا لا أستطيع التفكير إلا بكَ، كما لا أستطيع نسيانك..

وشوق متمرد

أطل بكَ في الأحلام

يعزف على وتر الحنين

وذكرى ماضية تترنح

مُتْعِبٌ عزف الشوق

مُتْعِبٌ الليل بدونكَ

مُتعَبٌ القلب بالغياب

لو أن الأحلام

لا تنتهي..

لكنتَ لباسًا لي، ولبقيت لباسا لك

استيقظتُ صباحًا للواقع المر، أنت لم تكن هنا، ولن تكون، لكن ثمة ما يدعوني للنهوض كل صباح، رغم انكسارات الأمس، رغم أن شمسه لا تلمس سمائي، رغم أنني ما زلت متعبة مما اقترفه الليل في حق قلبي، ثمة ما يدعوني للنهوض والبحث عن نور يضيء دهاليز قلبي .

أذهب للجامعة عكس طريق القدر الذي جمعنا، واليوم أتحاشاه كي لا ألمح طرفك، أذكر اقتباسًا ل باولو كويلو " ما أجمل أن نلتفت للوراء دون حنين، دون ندم، ودون حقد أيضا" أصبحت أردد اليوم بأنه ما أجمل أن لا نلتفت للوراء، فالإلتفات للوراء ضعف، انكسار، وانهزام.

لا يمكن للإنسان أن يلتفت لماضيه دون أن يتعثر بجثة الأمس، دون يعلق به شيء من الماضي يفسد عليه حاضره، بقايا ذكرى، أو رائحة عطر، أو حنين سري.

مرت الأيام ولا أدري كيف أطبق مقولة أنا كتبتها كنصيحة لنفسي " أن لا ألتفت للوراء" لكني دومًا ألتفت، فضولي يقتلني لمعرفة كيف حالك بعدي، وأشواقي تنحرني، لم تكلمني منذ آخر مرة بعد ال "أكرهك" التي تفوهت بها، وأنا أيضًا لم أكلمك، لكنني اشتقتك، كم تقت لانصهار يدي الباردة في حضن كفك الدافئة، أشغل نفسي من الشرود والإلتفات للوراء، لأنني أدري.. إن التفت للوراء فلن أعود، انخرطت في نادي الطالب، وفي نادي الرياضة، بقي لي الإنخراط في نادي النسيان!

حقًا لماذا لا توجد نواد للنسيان؟ يدربون فيها على خطوات النسيان، وتمشي معهم خطوة بخطوة حتى تبلغ النسيان! لكن لو كان لما انخرطت فيه حتمًا، خوفي من نسيانك أكبر من خوفي من أن لا أنساك! أنت لعنتي التي لا أريدها أن ترحل عني.

مر الخريف، وجاء الشتاء، هطلت الأمطار وارتوت الأرض بعد شوق وتوق لدموع السماء التي تغسل عنها تراب الغياب، لكنها لم تمطر لقاءَ واحدًا، لم يرتوِ قلبي من دموعك، ولن يرتوي، لم يجرفك شوق واحد، أمل مشتعل بداخلي يخبرني بأنك ستعود حتمًا، لكني أعلم بأنك لن تأتي، منذ رحيلك أصبحتُ ممتلئة بالتناقضات، كما أدري بأن الشتاء هذا العام لم يخلق ليحتوينا، شتاء هذا العام سيكون باردًا، قارصًا، برد لن تدفئه المدخنات ولا المعاطف ولا أكواب القهوة، برد القلوب أشد قسوة، لا يدفئه إلا لقاء أو عناق.

وغيمة كئيبة مثقلة بالذكرى في سماء الشتوية، وأرصاد قلبي تنبؤني بأن الشتاء هذا العام سيكون قاسيًا جدًا، كالحجارة أو هو أشد قسوة، وقارصًا جدًا.. وأن ثلوج الوجع لن تذوب.

وتلقي الغيمة أول لعنة من لعنات ذكراها إليّ، لتشرد قلبي في سمائها المعربدة.

تعود بي الذكرى إلى هناك، إلى زمان لا أذكر أي وقت كان، لا أذكر سوى أنه كان زمن حب، حين كنت أستظل بظلك، وحين كنتَ "أنيس قلبي" حين كنتُ وردة، لا مجرد أشواك ما أصبحت.

في طريقي إلى الجامعة كعادتي، إذا بي أكتشف أنك تنتظرني رغم أننا لم نتفق مسبقًا على ذلك، اقتربتُ منك..

مغريًا كنت بوقفتك الثابتة ،ويديك في جيب سروالك البني، علت شفتاك ابتسامة جميلة زادتك جاذبية وزادتني ارتباكًا، ثم لوحت لي بيدكَ، وقفت أنا الأخرى وعقدت يدي أمامي، قلت لك بلهجة من تتحدث مع غريب:

- عفوا، لماذا تعترض طريقي؟

رفعتَ حاجبك اليمنى باستنكار وقلت:

- أريد أن أخطفكِ، أتمانعين يا سيدتي؟

ضحكتُ وأنا أخفي فرحًا سريًا:

- نعم أمانع.

أخذتَ يدي في حركة سريعة إلى قلبك، وأحكمتَ عليها قبضتك الحنونة، أحب جنونك، وقد جعلناه طرفًا في حكايتنا العشقية، وأحب اصرارك وأحب انصياعي لك راضية، سحبتني وسرت في الطريق، استوقفتك:

- ماذا تفعل يا مجنون!
- قلت لكِ سأخطفك، تجيدين الركض أليس كذلك؟

نظرتُ إليك وقد اتسع فمي دهشة:

- أنت تمزح صحيح؟!

قلتَ وأنت تغلق فمي بيدك:

- لا، لا أمزح..

سحبتني من يدي مجددًا، وركضت بي، من حسن حظي أنني كنت أرتدي حذاءَ رياضيًا، لا أدري كم من شارع عبرنا، ولا كم من أعين تابعتنا بفضول واستنكار، نسابق رياح الجنون لنبلغ بر الحب والسعادة، تزايدت نبضات، قلبي بسرعة جنونية، والحب يدق أبواب القلب كلها، سحبتَ يدي المتصببة عرقًا وعشقًا من يدك، ووقفت أتلفظ أنفاسي بصعوبة، شعرت بتعب هدّني، لكن راحة عجيبة تسربت إلى ثنايا روحي وملأتها نسائمًا، جلستَ على الرصيف وسحبتني لأجلس لجانبك، لم أمانع، كان قلبي ما زال يخفق بقوة من شدة التعب ومن قربك، أرحت رأسي على كتفك العريض، بحركة سريعة أزلت ربطة شعري وتركته ينسدل على كتفي وكتفك، أغظتني بفعلتك، فضربتك ضربة خفيفة على كتفك:

- اترُك شعري.

- أحبه مسدولًا.

رُحت أخفي خجلي بجمع خصلات شعري، لكن وجنتاي الفاضحتان وشتا بي، أمسكتَ خصلاتي بين يدك وبدأت تفردها بأصابعك، فانهزمت لعشقي لك، وقفتَ عند عيناي تتأملهما كأنهما أحجار كريمة، كانت أشعة الشمس قد انعكست على عيناي، مما جعل لهما لونًا آخر براقًا.

- عيناكِ فاتنة تحت أشعة الشمس، كالعسل المصفى، لكنهما أشد صفاءَ منه ولمعانًا، لو رأت الشمس عيناكِ في انعكاس ضوءها، لما غربت.

يربكني كلامك فأقول لك مغيرة لمجرى الإرباك:

- إذن إلى أين ستخطفني؟
- إلى قلبي.

فتربكني أكثر، وتطيح بقلبي أكثر...

توقظني أمي من أحلامي بناداءاتها لتسألني عن دراستي، كنت جالسة على الأرض مثقلة بالحنين، وملامحي قد أصابها أثر الذكرى القاسي، وشجون الفقد يدوي في أذُناي.

تسألني :

- ما بكِ؟

بي عمر من الخيبات، بي عمر من الفقد، بي عمر من الشوق..

- لا شئ أمي، فقط متعبة.

لم أعد أراكَ أبدًا، كأنك تبددت في الفراغ، أو أنك كنت مجرد سراب أو حلم، حلم جميل استفقت من سكرته وبقيت غصة المرارة عالقة في قلبي، زرت المقهى الذي كنا

نرتاده أكثر من مرة، عساني ألقاك ولو مصادفة، لكنك أبدًا ما عدتَ تذهب إلى هناك، طاولتنا المعتادة تحكي بعثرة غياب، سئمت وحدتها العقيمة، تتوق لبريق حديث يشعل الحكايا الماضية.

أنظر إلى السماء، فلا أرى غير غيوم واجمة، قد سودها الضجر، والليل طويل، بارد إلى غير أجل، أبحث بعيناي في الأفق، عن نجم متشرد، لكن النجوم توارت في سماء بغير عمدٍ.

الوقت ليل، ووحشة تسكنني إلى الأزل، أشتاق سمراً يبهج عمري، أشتاق عناقًا يربك نبضي.

وفي ليالي الشتاء، أبحث عن قلب يدفيء صقيع روحي، وقلب يحتويني حين أترنح تحت المطر، حين يعبث بي ظلام الشتاء، وحين تشردني أيدي الذكرى.

لا أجد أمامي غير صمت يتيم، وشبح سراب عقيم يعانق أركان الذكرى، وحلم طريد يئن في أسى، وأوراق أرقّها الفراغ، تغريني بشهية الكتابة، وأقلام مبعثرة تشعل بين الأنامل لهفة أشواق باقية، وأطياف حنين تسيرني، تتحكم بأطرافي، توقني بالقرب من حكاياتنا الماضية يا قلبي، وأوعدها بأحزان الشتاء، مهلًا.. لمَ قد أودعها وهي لم تكتمل بعد، تقف الحكاية أمامي عارية في ألم، لكنها لا تخشى عريها، مبتورة الفصول.

ما زالت الأوراق تغريني، تبتسم في وجهي: هيت لكِ..

يدفعني إليها عشق قد تم نكرانه، تدور الفكرة في رأسي وأتيه بين عبث القدر، لتنطق شفاه الحكاية: أكملي فصول الحكاية.. فقدر الأوراق بين حروفك.. أجيبها : سأفعل.

سأكتب رواية، سأتيه بين سطورها ما دام قدرها بين حروفي، سأنتحر بالحرف، وأشتاق بالحرف، سأنتهي منك بالحرف، وسأبدأ حبك مجددًا بالحرف، سأكمل حكاية لم يسعفنا القدر على عيشها، سأعيشك بالحرف.

ولكن إن كتبت لك رواية فسأجر إلى قلبي دمع الحرف وأدميه! لا يهم!

سأكتب لك فقط، سأقتص لعشق لم تكرمه الحياة، سأكرمه بالحرف وأخلده بالحرف، سألملم بقاياه المكسورة وأغلفها بالحرف.

لكن رغم ذلك، أعلم أنني سأفتح برأس القلم أبواب عذابات لا تنتهي، فالكتابة إليكَ موجعة، الكتابة إليك قاتلة!

أعلم أن الكتابة لكَ في زمن الفراق تعني التلاعب بشظايا الذاكرة، وأعلم أن عقاب التلاعب بشظايا الذاكرة تعريةُ الجروح نهشها وخذشها، وهي التي لم تشفى بعْدُ!

لم تشف بعد دهر من الوجع، لن تشف بعد فصول من الكتابة، لاتشفى حتى بعد شفاءها!

وأعلم أيضًا أنه يجب علي مواصلة الكتابة لك من وسط حشود الجراح، حتى أنهي فصول الحكاية العنيدة، وأنتهي منك وأفرغني منك، حتى تصير مجرد خيال عبر سطور الورق في ذات شهوة أدبية يا رجل السراب.

لكن من أين سأبدأ الكتابة، من البداية أم من النهاية؟

من ذات شتاء حين تعثرت بعيناك؟ أم ذات ربيع حين اقتربت مني؟ وقد كنت أخشى الإقتراب منك، لكن روحي دنت من روحك، عانقتها وتوحدت بها حد الإلتصاق.

أم أبدأ من رحلة ترقب بين الشتاء والربيع؟

هل سأحصي في روايتي ذكريات، أم أحصي وجعًا؟

أحتاج إلى أن أختار كلمات منصفة لأكتبك بها وأكتبني بها، وكلمات جميلة لأكتب الحب بها، وأخرى موجعة لأكتب الغياب بها.

تقف لغتي عاجزة أمام كل هذا، وكأن الحروف تحولت فجأة لظل عقيم بعيد، لا أستطيع لمسه.

أكتب وأمحو، أرش الجرح بالحروف ثم أمزق الورقة، ما إن أقترب من الإمساك ببداية، حتى تفر الحروف هاربة، ها هي البدايات تنبذني، ترفضني، لكن ظلال النوم يناديني، سأنام الآن وسأكتب في الغد، لابُد أن أعثر على بداية لأطراف الحكاية المبتورة، المبتورة والعنيدة والتي أبت إلا أن تكتمل ولو في سطور على ورق.

بما أنها كانت بداية عطلة الفصل الأول، كانت فرصتي المناسبة للبداية في كتابة الرواية.

ذهبت للمكتبة وابتعت أوراقًا وأقلامًا لرحلتي الأدبية، قد تلزمني رغم أنني أملك ما يكفي على مكتبي، إلا أنني ما اكتفيت بها ولأني بعد اليوم لن أخرج، لن أفعل أي شيء سوى الكتابة والكتابة فقط، عثرت في رياح اللغة على جملة أسافر بها على متن الورق، حتى أبلغ مرسى النهاية الذي سيختاره قلمي للوقوف عنده.

أخذت مني الرواية كثيرًا، صبرت وتصبرت على أوجاع حروفها، غيابك علمني الصبر، وهذه أول قاعدة تعلمتها: الغياب يرودنا على الصبر.

مع كل سطر كتبته كنت أنثر فيه حبًا، وأجمله عشقًا، كتبتكَ فأحببتكَ مرة أخرى، أحببتك على الورق حد إدماني للحبر، وقبلت وصف شفتاك على الورق سرًا، علمت أن حبك كان قدر، فها أنا لم أكتفِ من حبك مرة، فأحببتك مرتين كما لم تحبك امرأة أخرى، فتعلمت القاعدة الثانية: " الحب قدر، لا تسعى لدفنه بالنسيان، سيموت حين سيأذن له القدر، سيجعله ترابًا، فلا تستعجل الأقدار.."

منذ أن بدأت كتابة الرواية وأنا أشرب قهوتي المرة باردة، باردة كأطراف الورق قبل أن تكسوها الكلمات فتصبح مثلك، دافئة، مؤنسة، وحين أكتب عن الشوق، يرتعش القلم بين يدي ويبكي حبرًا، هنا القاعدة الثالثة: "الشوق هو برهان الحب الوحيد، إن لم تشتاق لحبيبك بعد الفراق، فلا يعتبر-ماكان- حبًا بل بهتانًا.."

أسرح في الأوراق التي شردتني، في رحلة استمرت من الشتاء إلى الصيف، جاء الصيف ولكن الذاكرة ما زالت تُمطر، وتغرقني في سيل من الذكريات، للحظة أفكر في رسالة

أو قاعدة جديدة:" الذاكرة هي الشيء الوحيد الذي يتبقى لنا من الحبيب، علينا ألا نحفظ في رفوفها إلا ما أسعدنا منه ذات حب" .

ماذا لو أشعلت سيجارة أثناء الكتابة؟ راودتني هذه الفكرة منذ أن بدأت رحلتي، كما كان يفعل درويش وغيره من الكُتاب، شعرت بأنني أرغب في تجربة كافة طقوسهم الأدبية، لربما سأفعلها قريبًا، فلم أنتهِ من الرواية بعد، ما زالت أمامي فرصة لتجربتها- لأول مرة- كنت أسمح لك بأن تدخن حين أكون بجانبك، أحب منظر السيجارة وهي تحترق في يدك، تشبه احتراقي في غيابك، كيف تنفث دخانها عاليًا على شكل دائرة، ثم تطفئها برقة على المنفضة قبل أن تنتهي حقًا، أما زلت تدخن بتلك الطريقة؟ أما زلت تستهلك عشرة أعقاب سيجارة في اليوم؟ أرأيت.. ما زلت أذكر تفاصيلك، ترى أغيرت الأيام من صفاتك شيء؟

مضى وقت طويل على آخر لقاء يا "أنيسي"، فقدت فيه شعاع دفئك من حولي، لكني ما زلت أشعر بك كلفحة نسيم تمر بقلبي، فبقلبي أنت دائمًا، وإن عصفت بنا رياح الأقدار نحو الفراق وشردت أحلامنا، تفصلني عنك طريق مستحيل، وعواصف كبرياء، وصخب رحيل، لكني أشعر بأن أرواحنا ما زالت تلتقي، تتعانق، تتوحد في الخط الفاصل بين الرحيل والبقاء، والقاعدة الخامسة: " المسافة لا تقتل المشاعر، هي فقط تمحضها وتخضعها للتجربة، تجربة تحمل نتيجتان:

فهي إما أن تتوهج بفعل الإشتياق، أو تموت بفعل الإعتياد..."

أحضرتُ سيجارة أخيرًا، تركتها عمدًا حتى أثناء كتابتي للفصل الأخير من الرواية، لتشهد نهايتي وموتي، لنحترق معًا، لنغدو رمادًا تناثره الرياح معًا، جلستُ في شرفة غرفتي بالقرب من أوراقي الأخيرة، وورود الجوري.

أخذت السيجارة في يدي اليسرى أحرِقها، وقلم في يدي اليمنى يحرقني، أشعلت السيجارة فأشعِلت معها حرائق قلبي، ونيران اشتياق في صدري، نفثتُ دخانها عاليًا في محاولة لتقليدك، لكنني أخفقت، لم أنفث إلا بقايا دماري.

شغلتُ مقطوعة يانّي الرائعة " Before I go "

وشبح الرحيل يعزف في الجوار، كانت مناسبة للحظتها، ولسطوري الأخيرة لأنني قررت أن أنتهي منك ها هنا..

"Before i go "

لأنني" after I go" لن أكتبك أبدًا..

قررت أن أحرق بقاياك العالقة بي في منفضة الورقة الأخيرة وأنتهي، والمشاعر المتضاربة التي أبادتي منذ رحيلك حالما أنتهي من كتابة الرواية.

لكن في دقائق اشتعال السيجارة، أضرمت في داخلي حبًا كان قد بدأ يخبو، أضرمت في داخلي أعاصير نارية ورغبة لرؤيتك والإحتراق بين يديك.

كيف أنساكَ وأنت بداية العمر ونهايته؟

كيف أنساكَ وأنت قمر الليالي وضوء الأفق؟

تشدني أشواقي لحلم من ورق..

أن تسكنك حنايا قلبي..

لو ترجع لحنًا لضحكاتي..

لو ترجع عيناكَ وتنسيني عذاباتي..

لو تسرقني ليوم فرح من حزن زماناتي..

لو تعانق ضياعي في متاهاتي..

ولك أوتار قلبي..

سطور قصائدي..

وفصول رواياتي..

أطفأتُ السيجارة وأطفأتُ معها كل أعقاب الحروف.

مرت الشهور، وتم صدور روايتي الأولى-هزيمتي الأولى-، شهور على إنهاء كتابة روايتي، وسنة كاملة على فراقنا، لم ألتقيك مرة ولو صدفة، لم يجمعنا بعدها مكان أو شارع، كانت الشهور الأخيرة كافية لتجنيدي، كستني بغطاء من جليد، فلم أعد أشعر أبدًا، هذبني الوجع، وتساوت عندي كل الأشياء. الحزن/السعادة، الحياة/الموت، الأمل، واليأس..

أمارس الحياة بقلب ميت، حتى بريق عيناي بهت.

شعرت بأن القدر قد أهداني نجاحًا عوض فقدي، هيأ لي حلمًا أدبيا ما كنت أحلم أن أبلغ صرحه العالي، لكنه على كل حال يبقى حلمًا مبتورًا، جاء متأخرًا، لو أنه جاء مبكرًا حين كنت أستلذ الفرح، ما عاد يطيب لنفسي أي شيء الآن.

ثم تقفز ذكراك إلى بالي، ماذا لو قرأت الرواية؟ كيف سأستر عريي بعدها؟ وأنا قد أفضت للورق بكل شيء، وقد وشى قلبي بأمره خلف ستار الحروف، لو حدث وقرأتها، اقرأها بقلبك لا بعينك، فوحدك تعلم خبايا حكايتنا، خذ الرواية وضعها في مكتبك في رف لوحدها، دعها تذكرك دائمًا أنني أحببتك وخذلتني، خذلتني لدرجة أن كتبت في حبك رواية، أهديتني جرحًا يكفي لكتابة رواية أو أكثر، افتح صفحات الرواية وستجد قلبي ينزف بين الأسطر، وبين الحرف والحرف بقايا دمع قديم، أورثني حبك الكثير من الوجع حتى استنزف الورق من قلبي هذا القدر الكبير والعميق من الكلمات، وبعد أن أنهيت روايتي ونضب من جوفي الكلام، أستطيع أن أقول بأنني قد انتهيت أيضًا! ويسعدني أن أحتضر بين الكلمات وأموت على الورق، لتشيعني إلى مثواي الأبدي وخلودي الأبدي.

شيء ما منكَ بداخلي قد مات منذ أن أنهيتُ الرواية، وانتحرت معه الكلمات والحروف والأشواق، فما عدتُ أقوى على الكتابة، أصبح القلم يثقل يدي، يدي التي

لطالما عانقت يدك وتاهت في خطوطها، أنهيتُ روايتي وانقطع وحي إلهامك عني، فلتحفظوها في الأوراق، ولأحفظك أنا في دهاليز ذاكرتي.

اليوم بعد سنة من الفراق، لن أقول لك بأنني قد نسيتك، ولن أقول بأنني ما زلت أحبك، لن أقول بأنني اشتقتك، كثرة الغياب أنستني ما الشعور؟ ما الحب؟ ما الإشتياق؟ ما الوجد ما السهر؟.. كل شئ انصهر في ظلام الغياب، حتى أنني عجزت عن وضعك في تصنيف معين، هل أقصيتك إلى لائحة الغرباء؟ أم في رفوف الغائبين؟ هل قتلتك في الرواية أم أحييتك فيها؟ حتى النجوم اعتادت وحدتي ولم تعد تسأل عنك، والورود في شرفتي لم تسألني لماذا توقفت عن الحديث عنك، أينتهي الحب حين نصوم عن الحديث عمن نحب؟ أم أن أشواك الخيبة تخرسنا؟ ألم أقل لكَ لم أعد أعرف أين أصنف حبك، ربما في مقبرة الأموات، دفنت حبك وقلبي في قبر واحد، ما حاجة لي في قلب لا نبض فيه.

جاء يوم الحفل، كنت في كامل زينتي، لم أشأ أن أبخل عن الحلم، وقفت أمام المرآة أرتب مظهري للمرة الأخيرة، فستاني المخملي يقف تحت ركتبتي بسنتيمترات قليلة، بكُمين طويلين، باستدارة عنقه التي تبرز رقبتي، والقلادة النائمة على نحري في سلام، القلادة التي أهديتني إياها، نظرات الإعجاب من أمي كانت كافية بأن تخبرني بأنني كنت جميلة يومها، جميلة جدًا، رشات من عطري وحذاء أسود بكعب عالي، وذهبت للمعرض..

انقضت ثلاث ساعات بالمعرض في التوقيع، الحديث إلى المشاركين في المعرض ونظرات الإعجاب التي تلاحقني من كل من تقع عيناه عليّ! وبينما كنت أستعد للرحيل حين كان المعرض قد بدأ يغادره الزوار تدريجيًا، دغدغن حاسة شمي رائحة عطر رجولي قوي أعرفه، أعرفه جدًا، بعث ركام الذاكرة، قفزت واقفة أجوب بفضول عيناي زوايا المعرض، لتجلسني أيدي الخيبة على كرسي الماضي، ألعن في نفسي تخيلاتي الحمقاء، وقد نهشت رائحة العطر في روحي عمرًا منسيًا، أخذت القلم أعبث به في شرود شردني مع الأمس حين سمعت وقع أقدام يقترب، رفعت عيناي في نظرة خاطفة إلى الشخص القادم، لتتسمر عيناي عليه في دهشة، ارتباك، انبهار، وانتفاض النبضات.

كنتَ أنتَ، أنتَ تحمل ذاكرتنا العشقية وهزيمتي بين يديك.

حضرتَ إذن، وعلمت بأمر بوحي السريّ، بحضورك الملح..

حضرتَ وغبتُ مع الأمس في تفاصيله وثناياه، وبحب مخمور بالجنون.

عدتَ بعدما ظننتَ أن الجراح قد شفيت، التأمت، لكنها لم تُشفَ حقًا، وقفتَ قبالة دهشتي تبحث في ملامحي عن وقع حضورك عليّ، أو عن هزمتي أمامك.

تحمل روايتي في يديك كغريب، لكنك لم تكن غريبًا أبدًا، كنتَ المغترب عن وطن قلبي.

وعاد القدر يسلط ضوءه علينا، كما فعل في البداية قبل أن تصيبه لعنة فينطفيء ويتركنا نتخبط في عتمة الذاكرة، لكن لقيانا قدر، عادت نظراتك التي أحب تحاصرني بين جدران حبك، ولا مفر ولا مهرب منك الآن، والقدر يدعونا لمجازفة أخرى على نخب الجنون، تقلبني بنظراتك كما تقلب صفحات الرواية وتبحث في حروف وجهي عن حب قديم، شيء ما فيك بدا متغيرًا، إصرارًا واضحًا في قسمات وجهك، وهج في عيناك، أمنية عنيدة في جبينك، وفي القلب حب عراه الشوق، بدا شوق واضح في عيناك حين كنت تلتهمني بنظراتك وتكهربني لتشعل عتمتي الداخلية ورغبة سرية.

تحوم أطياف الذكريات حولنا، تلومنا ليالي الغياب الطويلة، وبقايا دمع قديم يعاتبنا، ظلال حب تنحب شوقًا، تراتيل عشق لنبض يئن، وتساقط الزمن في حضرتنا.

وليتني كنت ترابًا قبل أن أقف أمام عيناكَ وأتيه في خريف العمر الطويل، نظراتك كانت تشع أسفًا واعتذارًا، وشيء من رجاء معلق بهما، ودموع صامتة تغسل خطاياك، تطلب من قلبي غفرانًا.

اقتطفت أمنية من شجرة الأماني البعيدة، رجعت بالجنون، رجعت بعبير زهور تنثرها بين يدي، رجعت ببقايا الحكاية بين يديك.

استجمعتُ توازني المرتبك حين اقتربت وممدتني بالرواية، خرجت حروفي متلعثمة، مرتبكة، عارية:

- أي ن .. تر ي د .. ال ت و ق يع؟!

قلتَ :

- أريده في يديك سيدتي.

ما هذا الجنون الذي جاء به الآن!

نظرتُ إليكَ مستفهمة:

- عفواً أين تريده؟
- في أي صفحة من صفحات عمري.

فتحتُ غلاف الرواية لأجد أمنية خرافية، من ألف ليلة وليلة.. ودهشة حيرتني، أنستني كيف يكون السؤال وما هو، كانت مساحة مربعة في وسط الرواية، قد قُص واستبدل مكانها علبة مربعة، يتوسطها خاتم من الذهب الأبيض وبأحجار ألماسية صغيرة، وحجرة أخرى كبيرة تتوسط عرش الخاتم.

أخرستني الدهشة لأرفع رأسي إلى وجهك الباسم بغرور، أستنجد بك أن تفهمني ماذا يحصل!

اقتربتَ مني وأخذت ذقني بيدك برقة، قلت بلحن صوتك المحبب، ونبض أنغامه:

يا عاشقة الورد.

إن كنتِ على وعدي

فحبيبك منتظر..

فهمت قصدك، لكنني تظاهرت بجهلي لقصدك، رفعت حاجبي باستنكار وقلت لك بكبرياء:

- ماذا تريد؟

بابتسامة ماكرة أجبت:

- أريدك أنتِ، أريد عهدًا يجمعنا، أريد أن نجمع نجوم أحلام أضعناها..

ثم غمزتني وأضفت:

- أريد أن ننهي فصل الرواية الأخير سوية في دروب الحب، وعلى صدركِ أقضي عمري.

قلتُ لكَ بدلال :

- سأفكر.
- ليس لديك وقت للتفكير، أضعنا ما يكفي من الأيام والليالي.

أطبقت على خجلي بضحكة:

_ سأفكر.

ضحكت ومن ضحكتك ارتوى قلبي واستكان:

_ عنيدة وستظلين عنيدة .

في الحقيقة سأفكر لم تكن إلا "نعم، نعم" لكني أردتُ تعذيبك قليلًا.

شبكت يمناك بيسراي، لتتشابك أقدارنا من جديد، وقد فرحت السماء بعودتنا فأمطرت دموع فرح في يوم خريفي.

ونسينا بربيع القرب.. خريف البعد ورياحه.

فيحضر لذاكرتي العشقية بيت لفاروق جويدة :" ويظل حبك في خريف العمر أمنية عنيده

لو ألف عام فرقتنا..

سيجمعنا حنين أو.. قصيده"

ثم أضيف بحروف عشق : أو تجمعنا روايه..!

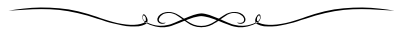

" تَمَــت "

هذه ليست النهاية، حكايا العشق لا نهاية لها..

حتى إن ماتت في الواقع..

فهي تعيش في قلوبنا..

للنشر والتوزيع2000جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار أدباء

تابعونا على الهاشتاج الخاص بنا

2000#أدباء_

وعلى الصفحات الر سمية للدار

https://www.facebook.com/Odabaa2000/

https://www.facebook.com/groups/1686790618200616/

https://www.facebook.com/odabaa2000.Publishinghouse